عمارة الكعبة المشرفة في عهد قريش

د. محمد هزاع مهدي الشهري

أستاذ مشارك بجامعة أم القرى

قسم التاريخ والعمارة الإسلامية

عمارة الكعبة المشرفة في عهد قريش

رؤية تحليلية لواقع قريش الاجتماعي والتجاري وأثره في تغيير بعض معالم البناء الإبراهيمي

د. محمد هزاع مهدي الشهري

التمهيد:

الحمد لله القائل في محكم الكتاب: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (١). والقائل أيضاً: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (٢). انتهت الرحلة الإيمانية بسيدنا إبراهيم عليه السلام إلى واد غير ذي زرع، حيث أُبتلي فيها بأمرين عظيمين(٣)، أمر في نهايتها برفع البناء الأول، لأول بيت وضع للناس؛ فجاء وفق إمكانيات إبراهيم وقدرته، متواضعاً في الشكل والمضمون، فبنى بالرضم(٤) وبأحجار محلية لم يتدخل أحد في تسوية وجوهها أو إزالة ما زاد منها عن حدود الجدار (الشكل رقم ٤ب). ولم يكن له سقف، ولا لبابيه الملاصقين للأرض مصاريع(٥). ووجودهما آنذاك على محور واحد في ركني البيت المشرف مما يلي الجنوب، أحدهما في الشرق، والآخر في الغرب. مخالف لما تعارف الناس عليه في القديم والحديث من وضع الباب في منتصف الجدار الرئيسي للمبنى، فهل هذا مما أمر به عليه السلام؟ وما الحكمة من ذلك؟ وما علاقته ببداية الطواف أو نهايته؟

إن جميع التجديدات التي تمت في الكعبة المشرفة بعد ذلك البناء، حافظت على المواصفات التي بني بها البيت المعظم في عهد سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام. ولم يشذ عن ذلك إلا بناء قريش بعد عام الفيل بعدة عقود(٦)، فما الدافع إلى ذلك؟ وما الغرض منه؟ وهل له علاقة بما أقدموا عليه من تغيير فيما تبقى لديهم من

شعائر الحج؟ التي سنها إبراهيم عليه السلام امتثالاً لأمر ربه الذي قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (٧).

مشكلة البحث وأهدافه ومنهجه:

إن عنوان البحث المتضمن رؤية تحليلية لواقع قريش الاجتماعي والتجاري وأثر ذلك في تغيير بعض المعالم الإبراهيمية. تطرح ثلاث قضايا رئيسية؛ ويحاول الباحث الإجابة عليها بما يتوافق مع منهج البحث التاريخي والتحليلي وهي على النحو التالي:

١- حالة البناء القديم للكعبة المشرفة منذ قصي حتى شرعت قريش في إعادة تجديده وفق مواصفات لم تكن في البناء القديم.

٢- الرقي الاجتماعي والمالي لقريش في عصرها الذهبي الذي سبق البعثة الشريفة؛ وأثره في تغيير بعض شعائر الحج. وما نجم عنه من تميز واستعلاء.

٣- معالم البناء القرشي للكعبة المشرفة، ومبرراته ودواعيه.

أما النقطة الأولى فتبحث في حال البناء القديم الذي صمد لعوادي الزمن عدة قرون(٨). فلم تؤثر فيه الأمطار لكونه بني بالحجارة الخالية من المواد اللاصقة، كالجص والنورة. فإذا داهمته السيول من أحد أبوابه، وغالباً ما يكون الباب الشرقي، وجدت لها مخرجاً من الغربي الملاصق للأرض كسابقه.

وليس له سقف يمكن أن يتأثر بالحريق أو بتلف الأخشاب القديمة، ولهذا فقد جاء ما يفيد أنه كان ملجأ للزواحف والطيور(٩).

أما النقطة الثانية فتبحث في مكونات المجتمع القرشي الذي ظل وفياً لزعامة قصي بن كلاب وبنيه، حتى توسعوا في التجارة التي اشترك فيها معظم أفراد المجتمع بما فيهم النساء[١٠]. وبرز منهم طبقة ثرية أمسكت برؤوس الأموال النقدية والعينية[١١]. ورأت في نفوذها نداً لبني هاشم[١٢]. فتجرأت على مطالبة عبد المطلب بإشراكهم في البحث عن زمزم، ثم ساروا في طريق الفساد التجاري، فطففوا الميكال والميزان، وتعالوا على الناس بأصولهم وكثرة أموالهم ومجاورتهم لبيت الله. حتى قالوا في الأمثال، "الناس تبع لقريش، وقريش تبع لولد قصي"[١٣].

أما النقطة الثالثة فتبحث في الوضع الذي استقر عليه البيت الشريف، والمخالف في بعض معالمه للبناء الإبراهيمي الذي وصفناه في البداية بالمتواضع في الشكل الخارجي والداخلي. وفق قدرة إبراهيم وإمكانياته المتواضعة.

أما المنهج المتبع في الدراسة فهو المنهج التاريخي الذي يجمع الروايات ويحللها وينقدها من الظاهر والباطن، ولا يستثنى منها إلا ما ثبتت صحته من الكتاب والسنة، ولذا فإن كثير من الروايات التاريخية المتداولة قد رفضت وفق هذا المنهج، لاشتمالها على المبالغات والأساطير التي اختفت بظهور الإسلام، فلم تتحرك جبال مكة في عمارة عبدالله بن الزبير للكعبة، ولم تتطاير الأحجار من أيدي العمال عند بدء الهدم للبناء القرشي، وكذلك الحال في عمارة عبدالملك بن مروان سنة ٧٥هـ وعمارة الدولة العثمانية سنة ١٠٣٩هـ وسأعالج الموضوع وفق العناوين التالية.

١- قصي وبناء المجتمع القرشي وفق قواعد وأسس جديدة.
٢- الأوضاع العامة لقريش قبل بناء الكعبة.
٣- قرار الهدم وصعوبة الإجماع.
٤- مراحل البناء وعقباته.
٥- معالم الكعبة في البناء القرشي.

المدخل: ظلت الكعبة المشرفة مبنية بالحجارة المرضومة[١٤]، وسط وادي إبراهيم منذ رفع البناء بحوالي ٩ أذرع[١٥]، فوق قواعد إبراهيم المحكمة البناء[١٦]، والتي كانت على شكل مستطيل غير منتظم الأضلاع[١٧].

وبالرغم مما قيل في تعدد المرات التي تعرضت فيها الكعبة للتجديد قبل الإسلام[١٨]، فإن معظمها روايات ظنية[١٩]، لا نملك الدليل على إثباتها أو نفيها؛ إلا ما نص عليه القرآن الكريم من بناء إبراهيم عليه السلام[٢٠]، وما وصلنا من الأخبار المقطوع بصحتها عن بناء قريش للكعبة قبل البعثة الشريفة بحوالي ١٥عاماً[٢١]، وما تلى ذلك من أعمال تمت في فترات مختلفة من العصر الأموي والعثماني[٢٢].

ومما يثير الانتباه أن البناء القرشي للكعبة جاء في فترة خلت من الأحداث التي عصفت بمكة المكرمة، كحروب الفجار المعروفة في التاريخ الجاهلي[٢٣]، وكانت على وجه اليقين بعد عام الفيل، فلماذا جاءت بعد هذه الأحداث، وليس قبلها، وما حال الزعامة القرشية آنذاك من حيث الثراء والمكانة الاجتماعية.

قصي وبناء المجتمع القرشي، وفق قواعد وأسس جديدة:

إن المتتبع لتاريخ قريش منذ تسنم قصي بن كلاب المعروف بالمجمع[٢٤]؛ زعامة القبيلة بعد فساد خزاعة، وتفريط المؤتمن على مفاتيح الكعبة منهم ببيعها وفق صفقة خاسرة، صارت مضرب المثل في الغبن والخسارة[٢٥] يدرك رجاحة عقل قصي حتى عد «أدهى من رؤي في العرب»[٢٦]. فقد جنب قومه مساوئ من كان قبلهم[٢٧]. فألزمهم باحترام البيت وتعظيمه، وأوجب عليهم إطعام الحاج[٢٨]، وأحدث لهم من التنظيمات العمرانية والإدارية ما نقلهم من حياة التنقل والترحال إلى التمدن والاستقرار[٢٩]. مستغلاً مجاورتهم لهذا البيت المقدس الذي تقدسه العرب.

وقد أكسبهم هذا التحول مهابة عند العرب باعتبارهم جيران بيت الله، فلم يستحلوا قتالهم، ولم يبدءوهم بعدوان[٣٠]. وسلموا بأنهم تبعاً لقريش[٣١]. وقد عد هذا التوفيق الذي صاحب أعمال قصي، إحدى مراحل الاختيار التي هيأها الله تعالى، لظهور دين جديد يوحى به إلى رجل من أحفاد قصي بن كلاب، الجد الخامس لرسول الله صلى الله عليه وسلم[٣٢]. فقد روى الإمام مسلم عن واثلة بن الأسقع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أن الله عز وجل اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[٣٣]. وفي رواية لأحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله عز وجل خلق خلقه، فجعلني من خير خلقه، ثم فرقهم فرقتين، فجعلني من خير الفرقتين، ثم جعلهم قبائل، فجعلني من خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً، فجعلني من خيرهم بيتاً، وأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً»[٣٤].

فإذا كان قصي قد أرسى قواعد المجتمع القرشي، فإن بنيه أتموا بناء هذا الصرح، بعدا ن وزع بينهم المهام التي بُني عليها مجدهم[٣٥]، وقد أوصاهم قبل موته بوصية جامعة نافعة، تكشف بجلاء عن رجاحة عقله ونبل مرؤته فقال: "من عظم لئيماً شاركه في لؤمه، ومن استحسن مستقبحاً شاركه فيه، ومن لم تصلحه كرامتكم، فداووه بهوانه، فالدواء يحسم الداء"[٣٦].

ومهما يكن من أمر، فقد نهض عبد مناف الذي خلف والده بالجوانب السياسية والتنظيمية[٣٧]. فآتلف أمر القبائل التي تنتمي إلى كنانة، وبعض قبائل العرب، وعقدت في عهده معظم الأحلاف التي زادت من قوة قريش[٣٨]. وأضفت قريش عليهم من هيبتها وشرفها، ما مكنهم من إبراز دورهم في المجتمع القرشي. حتى أن مالك بن الدغنة أحد الحلفاء البارزين زمن البعثة الشريفة، وزعيم القارة والأحابيش[٣٩]، عاد بأبي بكر الصديق رضي الله عنه من اليمن، محمياً بجواره المعتبر عند قريش. بعد عزم الصديق رضي الله عنه الالتحاق بركب المهاجرين في الحبشة.

ثم قام ابنه هاشم بن عبد مناف بالأمر من بعده، بعد أن اصطلحت قريش على توليه الرئاسة والسقاية والرفادة[٤٠]. ببذل ماله في إطعام الحاج وسقايتهم[٤١] فأرسى قواعد التجارة بالبدء في رحلة الشتاء والصيف، محققاً لقومه النجاح بجاهه، وسخائه الذي صار مضرب الأمثال[٤٢]، فاشتقوا له اسماً يناسب أفعاله في الجود والكرم[٤٣] وهو شرف لم يكن لأحد من قبله. ثم تدرج في الفضائل والمكاسب فنظم بإشرافه سير قوافلهم التي خرجت لأول مرة خارج حدود مكة؛ إما إلى الشام أو الحبشة[٤٤]. وهادن القبائل التي تمر القوافل بأراضيهم، وآتلفهم حتى وافته المنية بغزة من أرض فلسطين[٤٥]. التي عرفت حتى اليوم بغزة هاشم[٤٦].

وتحسباً لما ينجم عن وفاته من كساد التجارة، أو نقض عهودها، أرسلت قريش بعض إخوته إلى ملوك الأرض التي تمر بها تجارتهم؛ لتجديد الاتفاقيات، وإلزام القبائل بما عاهدوا هاشماً عليه[٤٧]، وتم لهم ما أرادوا وفق عهود ومواثيق ملزمة.

وإذا كانت الزعامة القرشية قد انتقلت بعده إلى أخيه عبدالمطلب بن عبدمناف، بسهولة ويسر. فإن الظروف التي صاحبت عهده مغايرة لما كان عليه الأمر من قبل، فنمو المجتمع القرشي، وكثرة الحجيج، بالإضافة إلى ازدياد قوافل التجارة؛ أوجدت مشكلة شح المياه[٤٨] فأعاد حفر البئر المقدسة (زمزم)، التي تعطل استخدامها منذ العهد الجرهمي، وفرح الجميع بهذا التوفيق وانتفعوا به، وعدوه من لوازم القيادة ودلالاتها.

وكان لنجاحه في العثور على كنز الكعبة، واستخراج الماء المبارك آثر في علو مكانته في المجتمع القرشي آنذاك، ثم ازدادت المكانة علواً بعد حادثة الفيل، التي وصفت بالمكيدة الضالة[٤٩]. والتي قوبلت بالهلاك المنسوب لقدرة رب البيت وحاميه:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[٥٠].

ومما لا شك فيه، أن فشل المؤيدين لهذا الغزو غير المبرر. قد أكد لقريش بصفة خاصة، وللعرب بصفة عامة، انتماء هذا البيت المقدس إلى خالق الأرض والسماء، والقادر دون غيره على حمايته. ولابد أن يكون الإخفاق الذي أصاب الجيش المدعوم كنسياً، ورومانياً[٥١]، والمعد له جيداً. قد أزال اللبس في مشروعية تعظيم العرب لهذا البناء الرمزي، والمتواضع فنياً وعمرانياً. والذي ليس له مثيلاً عند جميع الديانات السماوية التي بالغت في تزيين معابدهم وكنائسهم.

وقد سارت الأحداث في مكة قبل هذا الحادث أو بعده وفق تدبير عجيب، فكان نذر عبدالمطلب بذبح العاشر من أولاده. مثار دهشة واعتراض من العامة والخاصة في مكة المكرمة، مما أدى في النهاية إلى التحايل على النذر المخالف لما أعتاد عليه العرب بالطرق المألوفة آنذاك[٥٢].

فاكتسب الابن المفتدى – عبدالله بن عبدالمطلب – مكانة ما كان ليحصل عليها لولا هذا التدبير العظيم[٥٣]. ولهذا ازدادت مكانة الولد والوالد ومن بعد ذلك الحفيد عند سائر قريش. رغم المطالبة من بعض المتنفذين منهم بإشراكهم في شرف البحث عن زمزم التي تحققت برؤيا رفعت من مكانة عبدالمطلب وأكسبته المودة والتقدير عند جميع العرب.

وعلى ضوء ما سبق من معطيات وحقائق عن الزعامة القرشية، يتضح بما لا يدع مجالاً للشك بأن الناحية الدينية، لم تبرز بعد قصي إلا في عهد حفيده عبدالمطلب بن عبد مناف[٥٤]. الذي ألزم العرب كما يرى حسين مؤنس في تاريخ قريش بوضع أصنامهم حول الكعبة[٥٥]. فازداد النشاط التجاري، وارتبطت العرب بمكة في سابقة لم تعرفها العرب من قبل.

ونتيجة للرواج الاقتصادي الذي صاحب الأحداث السابقة أو جاء ثمرة لها،

تكدست الأموال في يدي بعض الأسر، التي صار لها نفوذ وأتباع يعارضون زعامة عبد المطلب[٥٦]؛ كما رأينا من قبل في المطالبة بإشراكهم في البحث عن زمزم. ثم خرجت الأمور عن نطاق السيطرة بعد موت عبدالمطلب؛ وتكاثر الأشراف من القرشيين[٥٧]. وقد عد الفاكهي من الحكام المبرزين فيهم بعد عبد المطلب تسعة أعلام[٥٨] صار لبعضهم دور في أحداث البعثة النبوية الشريفة.

ومهما يكن الأمر فقد نجم عن تغير تركيبه المجتمع القرشي ظهور بعض الممارسات التي حذر منها قصي[٥٩]. فانتشر الغبن في البيع والشراء، وظلم الغرباء من التجار. مما حدا ببعض العقلاء منهم إلى الوقوف بحزم في وجه المتجاوزين للأعراف والقوانين التجارية[٦٠]. فتحالفوا في دار عبدالله بن جدعان، لنصرة المظلومين أي كان جنسهم[٦١] وهو حلف أشاد به النبي صلى الله عليه وسلم ودعا إلى العمل بمقتضاه في الإسلام.

ويتضح من قائمة المشاركين في الحلف والداعين له[٦٢]، بروز شخصية الزبير بن عبد المطلب الذي خلف أباه في زعامة قريش لفترة محدودة[٦٣]. كوسيط لعقد هذا الحلف المهم في بناء المجتمع القرشي[٦٤]. خشية الانحدار به إلى مزالق تفقد قريش رواج التجارة، وتسيء إلى سمعتهم. ولا أدل على نفع هذا الحلف الذي عرف بحلف الفضول الذي أريد به رفع الظلم عن الناس جميعاً، من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت»[٦٥]. ولقد انتقلت الزعامة بعده إلى أخيه أبي طالب، الموصوف بقلة المال وكثرة العيال[٦٦]. رغم تواتر الأخبار عن سعيه الدؤوب في الاتجار مع قريش إلى بلاد الشام بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة[٦٧].

ويبدو أن الظلم الذي صاحب رواج التجارة في هذا العهد من تاريخ قريش، ضل قائماً حتى جاءت البعثة الشريفة[٦٨]. التي ركزت على التحذير من التطفيف في

المكيال والميزان، وهو داء أزلي أصاب المدن التجارية[٦٩]. على مر التاريخ كمدين وغيرها من المدن التي تركزت فيها الأموال في شمال الجزيرة العربية ووسطها[٧٠].

ولا أدل على تضاؤل زعامة أبو طالب، التي لم نجد لها ذكر قبل البعثة، في السيطرة على أمور مكة؛ من تسلم حرب بن أمية قيادة قريش في حرب الفجار، التي اشترك فيها النبي صلى الله عليه وسلم وعمره آنذاك عشرون عاماً[٧١].

واختلاف عشائرهم عند إعادة بناء الكعبة على شرف الفوز بإعادة الحجر الأسود إلى موضعه، ومرد ذلك فيما أعتقد إلى توريث الوظائف التي لم يكن لأبي طالب منها إلا السقاية[٧٢] وقد حرص علي بن أبي طالب رضي الله عنه عام الفتح على استرجاع الحجابة[٧٣]، قبل أن يردها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بني طلحة بن شيبة مؤكداً حقهم فيها بقوله صلى الله عليه وسلم: (اليوم يوم بر ووفاء).

ويتقوى موقف أبو طالب من إرث أجداده رغم خسارته لبعض الامتيازات من الحوار الذي دار بين ثلاثة من زعماء قريش بعد البعثة الشريفة. فقد قال أبو جهل: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: "لنا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه..."[٧٤]. ويتأكد هذا الشرف بما ذكره ابن كثير في تاريخه عن معاوية رضي الله عنه الذي قيل له: "أيكم كان أشرف أنتم أو بنو هاشم؟ قال: كنا أكثر أشرافاً وكانوا هم أشرف"[٧٥]. ثم فصل الخبر فقال: "فيهم واحد لم يكن في بني عبد مناف مثل هاشم. وكان فيهم عبد المطلب ولم يكن فينا مثله. ثم جاء منهم نبي لم يسمع الأولون والآخرون بمثله، فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف".

الأوضاع العامة لقريش قبل بناء الكعبة المشرفة:

لم يرد في الروايات التي ذكرت بناء الكعبة اسم أحد من أولاد عبد المطلب، ولم يشتهر في هذا المجال إلا الوليد بن المغيرة[٧٦] من بني مخزوم. ولم تذكر المصادر تفاصيل النقاش الذي دار بين زعماء قريش قبل الشروع في هدم الكعبة، ولا موضعه، ولا الداعي له. ولابد لأمر كهذا أن يأخذ حصته من الجدل والنقاش، وأن يكون في دار الندوة المعدة للتشاور في المخاطر التي تهدد مصالح قريش وأمنها[٧٧] والتي ظلت قائمة بمهامها بعد مجيء البعثة الشريفة[٧٨] فأبرموا فيها المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبالتدقيق في الأسماء التي أوردها ابن هشام عن المشاركين في صحيفة المقاطعة والمعارضين لها، والمشاركين في المؤامرة التي حيكت في دار الندوة ضد حياة النبي صلى الله عليه وسلم، يتبين للباحث تواجد معظم رؤوس العشائر المتنفذة في مكة آنذاك. بالإضافة إلى البارزين ممن حضر بدر وأحد والأحزاب، فإن الجميع قد شاركوا بطبيعة الحال في النقاش الذي سبق الهدم والبناء. هذا فضلاً عن تواجد ريحانة قريش منذ البداية – الوليد بن المغيرة – الرجل الأول في مكة آنذاك على حد قول بعض المفسرين[٧٩]. والذي قال عنه الأزرقي: "إنه كان أولهم وأجر أهم على مباشرة هدم البناء القديم"[٨٠]. يتضح بما يزيل الالتباس لدى الباحث، أن الدافع وراء البناء غير ما ذكره الأزرقي، ومن نقل عنه من المؤرخين المحدثين[٨١]. من تعرض الكعبة المشرفة للسيول التي جاءت في أعقاب حريق أوهن البناء القديم[٨٢]. ودفع قريش إلى التفكير في إعادة البناء.

فإذا كان السبب السابق لا يكفي وحده لإقناع الباحث بشروع قريش في هدم الكعبة وتجديدها، وفق مواصفات تخالف ما تعارف الناس على بقائه منذ بناها

إبراهيم الخليل، حتى زمن التجديد القرشي. فلابد إذن من إلقاء نظرة فاحصة على كل ما أحدثته قريش من تغييرات في طقوس الحج التي تعود في أصولها إلى زمن الحنيفية الأولى في عهد إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (٨٣).

فقد ميزوا أنفسهم ومن تحالف معهم أو انتسب إليهم بلقب الحُمس(٨٤)، وأضفوا هذا الشرف على كل من ولد من أم قرشية وأب غير قرشي(٨٥). واستنكفوا عن الوقوف مع سائر العرب في عرفة(٨٦). وألزموا من يطوف بالبيت لأول مرة، أن يستبدل ثيابه أو يطوف عرياناً(٨٧). كما منعوا الحجاج من اصطحاب الطعام من أوطانهم؛ إلا ما يباع أو ينتج في الحرم(٨٨)، كل ذلك بقصد تنشيط التجارة القرشية. ويدعم هذا الاستنتاج ويقويه ما قيل من أن عبدالمطلب كان وراء مجيء العرب بنسخ من أصنامهم المتحركة إلى مكة(٨٩). والتي شغلت بكثرتها التي وصلت عند الفتح إلى ٣٦٠ صنماً، حيزاً من المطاف(٩٠). فهل كانت من البداية بهذه الكثرة، أم أنها زادت بعد تعذر الحج بدونها، خاصة وأنها دين عبدالمطلب التي مات أبو طالب متشكك في نفعها(٩١)، بعد أن عاقه الشيطان من النطق بالشهادتين(٩٢)، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾.

وإذا أضفنا إلى ما سبق ميزة الثراء التي كانت في أوج ازدهارها قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. حتى امتن الله عليهم بإيلافهم الرحلتين اللتين هما مصدر هذا الثراء(٩٣) الذي بلغ عند بعضهم حد التخمة، فقد جاء في كثير من المصادر أن ثروة الوليد بن المغيرة التي وصفت في القرآن الكريم بالممدودة(٩٤). يقدر النقد فيها بما يشبه الخيال(٩٥). ومثلها ثروة هشام بن المغيرة، أما ثروة سعيد بن العاص فكانت ضعف ذلك(٩٦). ولا يقل عنهم تاجر السلاح المشهور في مكة عند فتحها – صفوان بن أمية – سيما وهو أحد العشرة الذين انتهى إليهم شرف الجاهلية(٩٧).

أما تاجر الرقيق عبدالله بن جدعان، المشهور بالمآدب في الجاهلية[٩٨]، وباستخدامه لأواني الذهب والفضة. فلم يبلغ أحد مبلغه في حيازة المال ونفع الناس به[٩٩]. وإلى جانب هؤلاء أناس من الرجال والنساء جمعوا المال بأصوله المختلفة ونموه بالأساليب المتعارف عليها آنذاك وأشهرها الربا[١٠٠] الذي كان شائعاً بين أفراد المجتمع المكي، حتى أبطله الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع سنة ١٠هـ[١٠١]. ولم يتورع بعضهم عن استخدامه في نصرة معتقداتهم التي حاربوا من أجلها الإسلام، كأمثال عبدالله بن ربيعة المخزومي[١٠٢]، وأبو لهب الذي كان يضمن للمقاطعين لبني هاشم، ما يفوتهم من الربح أو يحل بهم من خسارة[١٠٣].

وممن حاز الثراء من غير هؤلاء قبل الإسلام وبعده، عبدالرحمن بن عوف[١٠٤]، وأبو بكر الصديق[١٠٥]، والعباس بن عبدالمطلب[١٠٦]، وخديجة بنت خويلد[١٠٧]، وأم مصعب بن عمير[١٠٨]، وغير هؤلاء كثير لا يحتمل المقام لذكرهم، ولا أدل على توفر السيولة النقدية من الذهب والفضة برموزها البيزنطية والفارسية[١٠٩]، من سرعة مبادلة الأسرى بعد بدر بالمال الذي تراوح بين أربعة آلاف وألف درهم[١١٠] لكل أسير.

هذا عن المال الذي تكدس في المجتمع المكي من خلال التجارة الداخلية والخارجية، على مدى ثلاثة أجيال أو أكثر؛ منذ سن هاشم بن عبد مناف الرحلتين وأرسى قواعدها. وقد انعكس هذا الثراء بطبيعة الحال على الحياة العامة والخاصة، سيما المعيشة وما يتعلق بها من مساكن ولباس وأواني، كانت ولابد على مستوى ما وصف لكفار قريش في القرآن الكريم، كالزرابي والنمارق[١١١] والسندس والاستبرق والأرائك والسرر[١١٢]، بالإضافة إلى الأكواب والأباريق، والغرف والمساكن[١١٣]، والقصور[١١٤]، ومختلف أنواع الزخارف[١١٥]، وجميعها مدركات حسية، عرفوها في حياتهم العامة والخاصة، وراءوها في أسفارهم التي شملت معظم البلدان المتحضرة في الشمال والجنوب والشرق والغرب.

فهل يعقل ولهم القدرة على صنع وامتلاك ما ذكر، بموجب قدرتهم المالية، أن تكون منازلهم خلت مما يستحسن منها، ويتناسب مع مراكزهم الاجتماعية التي تتفاوت بتفاوت الثروة، وتقتضي سنة التطور أن تكون قريش قد جددت منازلها وفق الثراء الذي امتلكوه بسعيهم وتوفيق الله لهم في هذا النجاح التجاري، الذي يتطلب إخلاص العبادة لرب هذا البيت.

ولا يعقل أبداً أن تكون المنازل التي بنوها على الأرض المحيطة بالمطاف منذ عهد قصي، بقيت على بساطتها الأولى، فإما أن تكون قد تعددت أدوارها، أو جدد بناؤها بأسلوب يتمشى مع التطور الذي واكب المجتمع الجاهلي، الذي كان يشهد تغيراً في نمو الثروة، وطريقة التوريث التي اقتصرت آنذاك على البالغين من الرجال[١١٦]. ومما يتوافق مع سنة التطور وفق المعطيات السابقة، تكاثر أعدادهم، واحتياجاتهم إلى المزيد من الخدم والعبيد في تسيير قوافلهم[١١٧] وخدمة منازلهم[١١٨]، ورعي أغنامهم وإبلهم، وإصلاح مزارعهم في ضواحي مكة وخارجها[١١٩].

ولأن التميز الذي فرضته قريش على من تحالف معهم من الأفراد والجماعات، يقتضي بأن لا يتساووا معهم في بعض الحقوق التي كان منها دخول دار الندوة[١٢٠]، أو المساواة في المجالس الخاصة والعامة[١٢١]. اقتضى بطبيعة الحال أن تكون بيوتهم بعيدة عن منازل القرشيين، المتدرجة في القرب أو البعد من المطاف حسب المكانة الاجتماعية الموروثة والمكتسبة منذ أمد بعيد، ومن وراء ذلك بيوت العبيد والخلعاء[١٢٢]، كل حسب أقدمية مجيئه إلى مكة، وما حاز عليه من المال أو النفوذ الذي أكسبه الهيبة وقوة التأثير.

وبناء على ما سبق عرضه من معلومات مفيدة، يتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن قريش بأصولها[١٢٣] وفروعها. أرادت بتجديد بناء الكعبة النهوض بمظهرها الخارجي، ليتلأم مع مظهر منازلهم، ومستوى الحياة التي كانوا عليها.

فإذا لم يكن ما ذكر من رغبة قريش في الارتقاء بمستواها الخارجي السبب الوحيد في البناء، فإنه في نظر الباحث أعظم الأسباب وأجدرها بالقبول، لأمور سأذكرها عند الحديث عن الوضع الذي استقرت عليه الكعبة المشرفة، مقارنة بما كانت عليه قبل عمارة قريش.

قرار الهدم وصعوبة الإجماع:

تذكر المصادر القريبة من فترة البناء، أن قريش لم تصل في البداية إلى قرار حاسم، بشأن هدم بناء الكعبة، فقد خافوا وترددوا[١٢٤]. وحق لهم أن لا يصلوا في ذلك إلى إجماع. فالبيت له قدسية ومهابة عند من نزل مكة قبل قريش[١٢٥]. هذا فضلاً أن البيت ليس ملكاً لأحد ممن حازوا المناصب الشرفية، التي توارثوها عن جدهم قصي. ولا يخص عبادة قريش وحدها، بل الأمر في هذا الشأن مشترك بين العرب الذين آمنوا بقدسيته منذ حماه الله من عدوان أبرهة، ولذا فقد اصطدموا بما للبيت من المهابة والشرف الذي حال دون التساهل في هدمه[١٢٦]، أو العبث به.

ولا يخفى على المطلع على تاريخ قريش، كثرة الروايات واختلافها في الحدث الواحد. وقد لاحظ الباحث بعد جمع الروايات المتعلقة ببناء الكعبة، ومقارنة بعضها ببعض، أن الأمر موغل في القدم في وقت لم يكن عند العرب تاريخ مكتوب، فتسجيل الأحداث وحفظها مرهون بما تناقله الإخباريون آنذاك، وما تعرضت له الروايات من الزيادة أو النقصان.

وأهم من هذا وذاك مجيء البعثة الشريفة بأحداثها الجسام، التي طغت على غيرها من الأحداث، حتى شغلتهم عن أسواقهم وشئون حياتهم العامة والخاصة، ردحاً من الزمن، فلما وجد التدوين في عهد المأمون العباسي وما بعده[١٢٧]، اختفت الحقيقة وظهرت المبالغات، والتناقضات فيما تناقله الرواة من الأخبار التي لا سند لمعظمها إلا التخمين والمبالغة.

ولا أدل على هذا الخلط في الموضوع الذي نبحث فيه، من أن بعض الصحابة المعمرين، قد أدركوا بناء الكعبة في عهد قريش وعهد عبدالله بن الزبير[١٢٨]، ولم يهتم أحد بما لديهم من حقائق أو ملاحظات، فلم يذكر شيء عن أسباب البناء أو دواعيه. ربما لأن ذلك غير مهم لمن اهتم بأخبار السيرة وسير الفتوحات، وقد أورد الأزرقي رواية مفاده سؤال معاوية لنفر من قريش عن بعض حوادث البناء، وصدقهم في بعضها وخالفهم في البعض الآخر[١٢٩].

فإذا كان الأمر كذلك، فما موقفنا في الوقت الحاضر من الأخبار التي دونت عن بناء قريش، والتي وصلت إلى حد الأساطير والخرافات، التي يرفضها العقل، ويأباها المنطق السليم؟[١٣٠]. وللتدليل على ذلك نجد الأخبار التي وردت في كتب الأحاديث خَلت على قِلتها من هذه المبالغات، ولم يكن لمثلها ذكر في أي من مراحل البناء التي تمت في الإسلام[١٣١]. بل إن هدم اللات والعزى قد أحيط قبل الشروع فيه بمثل هذه الأوهام التي لم يتحقق شيء منها[١٣٢] لمن انتدب لهدمها من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما بناء الكعبة المشرفة فقد سبقته أمور كانت موضع جدل بين زعماء قريش، كما يفهم من بعض الروايات، وبما يقتضيه الشروع في مثل هذا العمل العام، منها التكلفة الإجمالية للهدم والبناء، وجمع الأموال التي ارتأوا أن تكون مما لا شبهة فيه[١٣٣]. ولابد للبناء أن يتأثر ويتأخر بما صاحب البحث فيه من نقاش، انتهى بالتوافق على معظم جزئياته، إن لم يكن على مجملها.

ولأن الروايات في هذا الشأن كثيرة ومتناقضة[١٣٤]، فإن أولاها بالقبول ما ذكره الأزرقي عن رجال من قريش تناقشوا بعد الإسلام في بناء الكعبة، وما آل إليه أمرها، فقالوا: "كانت مبنية قبل الهدم بالرضم[١٣٥] الخالي من المونة، وبابيها[١٣٦] ملتصقان بالأرض، وليس لها سقف، وكانت كسوتها تربط بأعلى الجدران من داخلها، وكنوزها

في جب على يمين الداخل من الباب، مما عرضها للسرقة والاعتداء أكثر من مرة[١٣٧].
ولهذا فلم تعد الكعبة المشرفة وفق هذه الأوصاف مناسبة لأوضاع قريش المالية والاجتماعية والعمرانية.

فإذا سلمنا جدلاً بأنهم تهيبوا من هدمها، فما الداعي إلى مغامرة وجيه من وجهائهم بالشروع في الهدم[١٣٨]؟ واحتكامهم عند الشروع في البناء إلى القرعة التي جزأت الكعبة إلى أربعة أجزاء، تتوافق مع بطون قريش الرئيسية؟ إن التسليم بصحة هذه القرعة، يلغي فكرة المال المرصود من المكاسب الطيبة للبناء. وهو أمر لا يتفق مع صحة المال المرصود الذي ورد في حديث عائشة رضي الله عنها باسم النفقة[١٣٩] الطيبة. ويلغي دور ستة فروع من العشائر القرشية أو يهمشها[١٤٠]، وهو أمر يصعب تحقيقه وفق التنافس في المجتمع المكي آنذاك.

إن المدقق في الروايات التي وصفت مراحل البناء، يلمس غياب الحقيقة المطلقة، عن هذا الحدث الذي شارك فيه الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة[١٤١]، والذي يسير وفق عناية ربانية تظهر في إحدى مراحلها، احتكام قريش إلى حنكة النبي صلى الله عليه وسلم وأمانته قبل البعثة؛ في حسم أخطر نزاع كاد أن يفضي إلى حرب تعطل البناء وتقضي على الوحدة السياسية والاجتماعية لقريش[١٤٢]، وتفسد مصالحها الاقتصادية، بل ربما تغري الشامتين من العرب بهم.

ومما يجب التسليم به أن الأمر لا يعدو اتفاقهم على هدم البناء القديم، بمشاركة المئات[١٤٣] من المقتدرين منهم، بالإضافة إلى عبيدهم ومن شاركهم من الحلفاء، وقد أودعوا كنوز الكعبة ومقتنياتها[١٤٤] عند كبير سدنتها آنذاك[١٤٥]، وأخرجوا الصنم هبل من داخل الكعبة، ووضعوه عند المقام[١٤٦].

وبعد القيام بما سبق، يجدر بنا أن نفترض محافظتهم على أحجار البناء القديم ومخلفاته، تسهيلاً للإقلال من النفقة، ولاكتساب هذه المواد قدسيتها من كونها إحدى

مكوناته التي تجلها قريش[١٤٧]. ويتبادر إلى الذهن بعدما سبق ذكره، معرفة مصدر الأحجار الجديدة[١٤٨]. فهل أحضرت ونحتت واجهاتها قبل عملية الهدم؟ أم أن الأمر كان يسير بخلاف ذلك؟ خاصة إذا أدركنا صعوبة نحت الأحجار الصلبة التي بنيت بها الكعبة في القديم والحديث (الشكل رقم ٤). إن قداسة المبنى وروحانيته، تقتضي أن تتهيأ الأسباب، وتجلب المواد اللازمة للبناء قبل الشروع في الهدم، الذي يكون في العادة أسهل مراحل أي مشروع، ولا أدل على صحة ذلك من أن المحاجر المتعارف على جلب الأحجار منها كانت بعيدة عن الكعبة وفي أماكن متفرقة من مكة[١٤٩].

إن الرواية التي تقول بتجزئة قريش للكعبة، وإسناد كل ربع منها إلى مجموعة من العشائر، والتي دللنا من قبل على ضعفها[١٥٠]، تقتضي اختلاف أحجام الأحجار، واختلاف ألوانها باختلاف مصادرها ونحاتيها. في غياب وجود مرجعية توجههم وتوحد إنتاجهم، ومما يلغي فكرة التوافق على إظهار الكعبة بمظهر يخالف في جمالياته ومتانته البناء القديم.

وفي الواقع فإن حسن التنظيم الذي اكتسبته قريش على مر السنين، في تسيير قوافلهم التجارية، صيفاً أو شتاءً. وإسناد قيادتها إلى رجل منهم؛ رغم كونها تجارة عامة[١٥١]، يدعو إلى الاعتقاد أن قريش لم تترك أمر الهدم وتحضير المواد، وفق ما ذكرته الروايات السابقة[١٥٢]، فلابد إذن من الترتيب. إن المنطق السليم يفترض أن تكون قريش ممثلة في رجالها المشهورين بالتأني ورجاحة العقل[١٥٣]. قد أسندت هذا العمل إلى أهل الخبرة بأعمال البناء؛ ممن عرفوا مهارتهم في بناء البيوت، سيما وأن كثيراً من أهل الحرف من غير العرب قد استوطنوا مكة قبل البعثة الشريفة بزمن طويل[١٥٤]. ولا يصعب على قريش إحضار من له دراية بفن البناء من خارج مكة أي كان موطنه؛ فهم بصدد بناء صرح له صلة بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم.

فهل يعقل أن يسند بناء هذا البيت الذي هو مصدر عزهم وكرامتهم إلى الصدفة التي ألقت بسفينة متهالكة إلى ميناء الشعيبة[١٥٥]، يقودها أو يملكها رومي يعرف البناء يقال له باقوم[١٥٦]. فإذا سلمنا بهذا الرأي وأمثاله من الأقوال التي تنسب الفضل في هذا الجانب إلى الخبرات الأجنبية، فإن القرشيين كانوا يعيشون بخلاف ما تؤدي إليه الثروة التي ميزتهم عن غيرهم في اللباس والمعاش، وبطبيعة الحال في المساكن والأثاث، إنه أمر يخالف المنطق ويتنافى مع الواقع الذي تمجده الأشعار وتتغنى بجمالياته[١٥٧].

مراحل البناء وعقباته:

لنفترض أن هدم البناء القديم قد تم بمهنية واحتراف تحف بها المهابة والتعظيم، وأن المخلفات نقلت بعيداً عن المطاف، برعاية ورقابة قرشية صارمة، وأن الأحجار والمؤنة اللازمة للبناء الجديد قد أحضرت من قبل. كما فعل ابن الزبير سنة ٦٤هـ[١٥٨]، إلى مكان قريب من الموقع[١٥٩]، بإشراف المقتدرين من قريش، ومباشرتهم لهذا العمل الذي شارك فيه النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة[١٦٠]، وهو عمل شاق يحتاج إلى عمالة مدربة وآلات خاصة ووقت طويل، سيما وأن المحاجر المعروفة في أماكن متفرقة من جبال مكة، تحتاج إلى دواب لنقلها إلى موقع البناء.

ومما يدعم هذا القول ما شاهده ابن جبير عند المداخل الثلاثة لباب بني شيبة في سنة ٥٧٩هـ، فقد وجد ثلاثة من الأحجار المنحوتة بأحجام كبيرة شبهها بالمصاطب، وضعت كأعتاب سفلية تتطأها الناس قبل الدخول إلى المسجد الحرام. قيل له إنها من بقايا أصنام قريش في الجاهلية. وهو ما نفاه ابن جبير معتمداً على ما أكدته المصادر من تكسير جميع الأصنام عام الفتح[١٦١]. فهل هذه الأحجار من بقايا العمارة القرشية، أو من بقايا عمارة ابن الزبير، أو عبدالله بن مروان، أو عمارة المهدي العباسي؟

إن قريش قد وجدت في نهاية الهدم نوع من البناء غير المألوف، آثار الدهشة بين الحاضرين منهم، وبين العمال المستعدين لمباشرة البناء الجديد، فهل غيرت الدقة والضخامة التي تميزت بها قواعد إبراهيم[١٦٢] من مفهومهم لطبيعة البناء الجديد؟ وهل دار بخلدهم أن إبراهيم عليه السلام لم يضع القواعد التي أثارت إعجابهم، وإنما رفع البناء فوقها؟ كما علم فيما بعد بنص من القرآن الكريم[١٦٣]. ولما لم تثنهم هذه الدقة في بناء القواعد عن الانتقاص منها؟ ولا في مقدرة من بناها؟

إنني بهذا التصور الذي لا يخرج عن طبيعة التفكير السوي، أفترض أن شيئاً من هذا النقاش قد دار، بعد أن ظهرت القواعد التي لم ترها قريش من قبل، ولا تستطيع مجاراتها في البناء الجديد؛ لاحتياجها إلى الجهد والمال والوقت الذي لا تقوى قريش عليه، ولا يحتمله الموقف، بعد أن هدم البناء القديم، وتهيأت الأسباب لبناء جديد علم به القاصي والداني من العرب.

إن القرار الذي كان له تأثير على مستقبل الكعبة في الإسلام، قد اتخذ قبل الشروع في البناء، فهل تم بالإجماع والموافقة، أم بالقلة المتنفذة؟ إن كتب الحديث، وروايات المؤرخين، لم تفصل كيف تم لقريش إنقاص خمسة أذرع[١٦٤] أو ستة أذرع[١٦٥] أو سبعة أذرع[١٦٦] من قواعد إبراهيم مما يلي الشمال؟ وهل تم ذلك بالإجماع أو الإقناع؟ وما هي حجج من عارض أو وافق؟

إن قراراً بهذه الخطورة، يتطلب من قريش أن تنشئ جداراً جديداً يمتد من الشرق إلى الغرب، بطول ثمانية أمتار وبعرض يتساوى مع عرض بقية الجدران[١٦٧]، (الشكل رقم١) ولكون أحد الأبحاث الميدانية عن بئر زمزم، قد أثبت أن المنطقة التي تحيط بالبئر، تتكون من الرمال بعمق ٢٢متراً[١٦٨]، (الشكل رقم٢) ولكون البئر والكعبة في بطن وادي إبراهيم ولا تبعد عنها إلا بـ(٢١متراً) [١٦٩] (شكل رقم ٣).

فإن بعدهما عن القاع الصخري متساو إلى حد كبير، فهل اضطرت قريش إلى مضاهاة القواعد القديمة بأحكام البناء وضخامة الأحجار[١٧٠]؟ أم أنها اكتفت بحفر أساس غير عميق، ثم بنته بأحجار صغيرة من حجم ما نراه اليوم في بناء الكعبة؟ (الشكل رقم ٤أ)، مما كان معداً للبناء الجديد آنذاك.

إن خلو الجدار الجديد الذي أقيم على هذا الأساس، الذي أحدثته قريش من العيوب أكثر من ثمانين عاماً فيما بعد[١٧١]، يحتمل أمرين.

أحدهما: تعميق الأساس، ومشابهة بنائه لما في قواعد إبراهيم، وهو أمر محتمل في ضوء ما ورد من حرص قريش على إحكام البناء الذي استخدمت فيه المؤنة اللاصقة[١٧٢] لأول مرة في تاريخ بناء الكعبة، ويرجح هذه الفرضية نقصان المال المرصود للبناء[١٧٣].

وثانيهما: حفظ القواعد المحيطة بالجدار الجديد من كل جانب لتربته[١٧٤]، ومنع المياه من التسرب إليها، مما حماها من الهبوط أو التحرك خارج حدود بناء القواعد القديمة، أو الجزء المحدث في الشمال. وهو المرجح لعجز قريش عن مضاهاة القواعد الإبراهيمية.

ومن المعروف عند كثير من أهل العلم أن جزءً من القواعد القديمة ما يزال خارجاً حتى اليوم عن جدران الكعبة من جميع الجهات بحوالي ٤٠سم[١٧٥]، وهو ما يعرف اليوم بالشاذروان[١٧٦]، ولم تكشف الروايات التاريخية أو الحديثية عن قول فصل في أسباب وجوده، وأول من أحدثه، فمن الأقوال ما ينسبه إلى خزاعة أو قريش[١٧٧]، ومنها ما يرجعها إلى عمارة عبدالله بن الزبير، مستدلاً بالأصل الفارسي لمسماه[١٧٨]، ولكونه رضي الله عنه استعان في عمارته للكعبة بعمال من الفرس[١٧٩].

ومما له وجاهة في هذا الشأن، أن تكون أصول الصنعة[١٨٠] قد أجبرت البناءين في عهد قريش، أو ابن الزبير رضي الله عنه، على الرجوع بالبناء الذي سيتضاعف

علوه[١٨١]، عن عرض القواعد التي لا يعلمون عمقها، إمعاناً في الدقة والإحكام[١٨٢]، ثم جاءت كسوتها بالأحجار المائلة في عهد عبدالله بن الزبير كحل شرعي[١٨٣] لمنع الطائفين من السير فوقها.

إن رجوع قريش بالجدار الشمالي ثابت في الصحيحين[١٨٤]، وغيرهما من كتب السنة[١٨٥]، بالإضافة إلى تأكيد المصادر التاريخية المكية[١٨٦] لهذا الحدث الهام. فهل الرجوع بالجدار الشمالي على هذه الصفة يزيد في نفقة البناء، كما جاء في الحديث الذي اتفق عليه الشيخان من طريق الأسود بن يزيد، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الجدر، آمن البيت هو؟ قال: نعم. قلت فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: ألم ترى قومك قصرت بهم النفقة... الخ»[١٨٧].

إن تقدير النفقة قبل شروع قريش في الهدم والبناء، أمر يتناسب مع المنطق والعقل، ويقتضي بطبيعة الحال أن تكون المعالم الرئيسية للبناء المقترح قد تحددت، واتفق عليها، كالارتفاع بالجدران إلى ضعف ما كانت عليه، وتسقيف الكعبة، ورفع الباب الشرقي وسد الغربي. فما الذي أخل بالنفقة من بداية البناء؟ إن سلامة المنطق ووقائع البناء في القديم والحديث، تؤكد أن النقص في ميزانية أي بناء، تظهر في الغالب في نهاية العمل لا في بدايته، فإذا كان الأمر كذلك، فنحن أمام عدة احتمالات:

١- أن تكون الأحجار التي أعدت للبناء الجديد وفق مواصفات خاصة قد اقتطعت جزءاً من النفقة، سيما وأن القصة[١٨٨] اللازمة للبناء أغلى وأجود من غيرها[١٨٩]. وقد اضطر ابن الزبير إلى إحضار الجيد منها من اليمن.

٢- أن يكون الجدار الذي استحدثته قريش وسط الكعبة مما يلي الشمال، اقتطع جزءاً كبيراً من النفقة المرصودة للمشروع، خاصة إذا كانوا قد ضاهوا به متانة

قواعد إبراهيم وعمقها، وهذا المال - إن حصل ما توقعت - لم تستطع قريش تعويضه، أو السماح لأحد أن يتميز عنهم بدفع المبلغ المنقوص من التكلفة، ولا يعقل أبداً أن تكون أموالهم غير المشبوهة، قد عجزت عن تكملة النقص في التكلفة الطارئة.

٣- قد يكون قرار الزيادة في ارتفاع الكعبة ضعف ما كانت عليه من قبل، ورفع بابها بحوالي مترين، ودفن ما تحت ذلك بالإضافة إلى تسقيفها. لم يأت إلا بعد الانتهاء من عملية الهدم.

٤- أن تكون قريش قد قررت من البداية، توسيع فتحتي الحجر الضيقتين[١٩٠]، ليتسنى لهم اتخاذ الحجر مقراً لبعض منتدياتهم، كما جرت العادة بذلك من عهد عبد المطلب[١٩١] وكما حدث في بداية الدعوة[١٩٢] وما بعدها حتى ظهر الإسلام وفتحت مكة سنة ٨هـ، خاصة وأن الأصنام التي أحاطوا بها الكعبة قد شغلت حيزاً من المطاف الذي قطره لا يزيد عن ٢١متراً إلا بشيء يسير[١٩٣].

ويتضح من الشكل رقم (١) أن الحجر على شكل نصف دائرة يزيد قطرها على ثمانية أمتار، ويقدر محيطها من الداخل بحوالي ١٦ متراً، مما يجعلها تتسع لأكثر من ثلاثين رجلاً يسندون ظهورهم إلى جدار الحجر، فضلاً عن الصفوف التي تجلس إلى جدار الكعبة أو على امتداد المسافة بين فتحتي الحجر والمقدرة بثمانية أمتار.

وإذا كان كل من الاحتمالات السابقة، لم يجد ما يدعمه من الأحاديث، والروايات التاريخية، فلعلي قد أسهمت بطرح هذا الجانب الخفي من تاريخ الكعبة، على بساط البحث، لمن كان أكثر جرأة ومقدرة مني على التوفيق بين الأحاديث التي تحدثت عن بناء الكعبة، والتي وصلت عند البخاري إلى أربعة أحاديث[١٩٤]، وعند مسلم إلى تسعة أحاديث[١٩٥]، ليس منها ما ينص على نقصان النفقة إلا حديث واحد

عن الأسود بن يزيد مكرر في الصحيحين مع اختلاف في بعض الألفاظ[١٩٦]، وليس لنقصان النفقة ذكر في بعض الأحاديث التي ذكرها البخاري في هذا الباب[١٩٧] ولا في الأحاديث التي وردت في مسند الإمام أحمد عن بنيان الكعبة[١٩٨]، والتي وصلت إلى إحدى عشر حديثاً. ولا في أربعة من الأحاديث التي وردت في صحيح الإمام مسلم[١٩٩].

معالم الكعبة في البناء القرشي:

باشر البناءون العمل فوق قواعد البيت القديمة والجديدة[٢٠٠]، بالحجر المنحوت والمدكوك بالقصة (الجص)، بأشراف زعماء قريش ورعايتهم، ولم تنقل لنا المصادر التاريخية وجود خلاف في هذه المرحلة من البناء، سواءعند الرجوع بالبناء عن الأطراف الخارجية للقواعد من الداخل والخارج[٢٠١]، ولا عن تعطيل الأساس الشمالي، واستبداله بأساس جديد بني في داخل الكعبة[٢٠٢]، على بعد مترين وثلاثين سنتيمتراً[٢٠٣] عن الجدار القديم. كل هذا وهم ينظرون إليه ويقتنعون بجدواه. سيما وأن البناء ما يزال في مستوى الأرض، وباستطاعة كل واحد من القرشيين مشاهدته ومناقشة البناءين في أسبابه ودواعيه. مما يجعل من المتعذر اتهام البناءين باستحداثه دون علم قريش أو نسبة ابتداعه إلى عشيرة بعينها دون علم الجميع به.

البناءون وطريقة البناء:

لن أخوض في جنسية البناءين، ولا وقت حضورهم، ولا معرفة كفاءاتهم، فذلك موضع خلاف بين المؤرخين[٢٠٤]، فضلاً عما يحيط به من غموض، ولكنني سألجأ إلى الفرض والاستنتاج، بما يتوافق مع المنطق والعقل، فهل يعقل أن تسند قريش بناء البيت الذي تعظمه وتفتخر بجواره[٢٠٥]، إلى من لا يحسن البناء ويتقنه؟ أم أن الأمر يحتاج من قريش أن يختاروا المميزين من أهل الخبرة والدراية في هذا المجال،

ممن عرفوا واشتهروا في الحجاز وغيره، تحسباً لما قد ينجم في المستقبل من وهن أو عيوب، تنال من سمعة قريش ورعايتها للبيت، أو تضطرها إلى إعادة البناء، وتعيش مع النزاع والخلاف مرة أخرى، وهو بلا شك أمر لا ترغبه قريش ولا تتمناه. ولا تسمح بأن يكون مجالاً للتدريب لمن لا يتقن فن البناء ويحترفه كمهنة رئيسية أختير من أجلها لمباشرة هذا العمل الذي يتمناه أمثاله ويحرصون عليه.

الجزء المدفون من الكعبة:

اضطرت قريش بعد رفعها للباب الشرقي عن مستوى الأرض بحوالي مترين وربع[٢٠٦]، إلى دفن ما يقع تحت العتبة السفلية لهذا الباب بمخلفات البناء القديم، وما يحتاج إليه من تراب ورمل الحرم، ثم دكه بعناية كلما ارتفع البناء مدماك أو مدماكين[٢٠٧]، ولا تحظى الرواية التي ذكرتها بعض المصادر التاريخية، بتعاقب الخشب في المداميك الخارجية مع الأحجار في الجزء المدفون من الكعبة[٢٠٨] وما فوقه، بالقبول ولا بالواقعية.

فقريش التي أرجعت وهن البناء القديم إلى الحريق الذي أتلف كسوتها، القابلة للاحتراق، لا يعقل أن تضع قطع الخشب في صفوف متعاقبة من جدران الكعبة الخارجية لأمور منها:

١- إن مظهره الخارجي لا يتناسب مع البناء الذي اُستخدمت فيه الأحجار المنحوتة، والمتساوية في الطول والعرض والارتفاع على غرار ما نراه اليوم في بناء الكعبة، والمخل بالمظهر الخارجي عند تجريدها من الكسوة[٢٠٩] في أوقات معلومات من السنة.

٢- إن الأخشاب لا تكون في العادة متساوية الأحجام، مما يعوق ملاصقتها لما تحتها وما فوقها من الأحجار، إلا إذا هذبت وهيأت لملاءمة البناء، وهو أمر يزيد من النفقة المرصودة للبناء. ويجعل فكرة التجانس بين الأحجار الخارجية للبناء متعذرة.

٣- إنها سريعة التلف، كما حدث لبعض الأخشاب في سنة ٢٤١هـ[٢١٠] ولما كان في داخل الكعبة سنة ١٤١٧هـ[٢١١]، وغير ملائمة لبناء يراد له الديمومة والبقاء ما أمكن، وليعكس مقدرة قريش وتعظيمها لبيت أعزها الله بجواره.

٤- إنها تحتاج إلى كميات كبيرة من الخشب، بطول أضلاع الكعبة ٦٨, ١١متراً للشرقي، ٠٤, ١٢متراً للغربي، ٩٠, ٩متراً للشمالي، ١٨, ١٠متراً للجنوبي[٢١٢]، والتي تتكرر بارتفاع البناء حتى تصل إلى ١٥مدماك[٢١٣]. وهو أمر لو حدث لكان مدعاة للترميم أو التجديد في بعض جوانبه قبل بناء أبي الزبير رضي الله عنه للكعبة بحوالي ٧٠عاماً.

أما النزاع الذي ظهر فجأة بين زعماء قريش، عند الوصول بالبناء إلى موضع الحجر الأسود، فقد انتهى رغم خطورته بتوافقهم على تحكيم أول طالع من أحد المداخل الرئيسية للمطاف، فاقترح الداخل وكان معروفاً عندهم بالصادق الأمين أن يضعوا الحجر الأسود في وسط قطعة من القماش، فتأخذ بأطرافها أبرز الشخصيات المتنازعة حتى تصل بها إلى الكعبة، ثم ينقله صلى الله عليه وسلم إلى موضعه، وكانت القدرة الإلهية قد ادخرت هذا الشرف للأمين محمد صلى الله عليه وسلم. فرضوا بحكمه وأكملوا البناء حتى ارتفعوا به عن المطاف بحوالي ٢٠, ٢سم، ثم وضعوا العتبة السفلية للباب الوحيد في عمارة قريش.

باب الكعبة:

إن رفع الباب عن مستوى الأرض بحوالي مترين وربع، وبعرض يقارب الباب الحالي، المقدر بمترين[٢١٤]؛ أمر له خطورته في هذا الشأن. فما الداعي إلى ذلك، وهل وفي بالغرض منه؟ لقد أضاف بوضعه الجديد عبأ على قريش في نفقتها المالية والإدارية، ففتح الكعبة المتكرر في يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع[٢١٥]، يحتاج إلى

سلم متحرك يتعهده من يقوم بخدمة الكعبة، ويحافظ عليه، ولابد لفتحته من باب قيل كان له مصراع واحد[٢١٦]، ومغاليق محكمة يحفظها بنو شيبة.

ولا أدل على تعالي قريش في هذه الفترة المضطربة من تاريخهم من استحداث هذا الباب الذي دلت الروايات على أنهم كانوا يلقون من حاول الدخول بدون إذن منهم، حتى لو أدى الأمر إلى تأذيه أو هلاكه[٢١٧]، أما التبرير الذي ساقته بعض الروايات لهذا العمل الشأين، من منع السيول[٢١٨] واللصوص من اقتحام البيت، فربما أتى في المقام الثاني من أهداف قريش، وليس أهمها على الإطلاق. وقد ظهر مثل العمل في بناء القليس باليمن على يد أبرهة الأشرم. فقد رفع الباب عن الأرض بحوالي عشرة أذرع[٢١٩].

إن خلو المصادر التاريخية، من ذكر حوادث سطو على كنوز الكعبة بعد عمارة قريش، مرده في الغالب، إلى حصانة البناء، وأشراف البيوت على المطاف من كل جانب، هذا فضلاً عن تواجد الطائفين من قريش، وسائر العرب في أوقات النهار ومعظم ساعات الليل، سيما الأشهر الحرم وفصل الصيف الذي تكون فيه القوافل في بلاد الشام.

إن في بناء قريش تجاوز لم يعترض عليه النبي صلى الله عليه وسلم، في حديث عائشة المشهور[٢٢٠]، وهو ارتفاعهم بالبناء عن المستوى الذي كانت عليه الكعبة في بناء إبراهيم عليه السلام[٢٢١]، بتسعة أذرع أخرى[٢٢٢]، فلماذا زادوا فيها النصف؟ وهل كان مقدراً من البداية؟ أم أن الأمر كان يسير بدون تخطيط واتفاق على مراحل البناء كلها؟. لم أجد في كتب المؤرخين الأول تبرير لهذه الزيادة في الارتفاع، ولا أحد من المحدثين حاول التحليل والاستنتاج مما يتيح الفرصة لبحث هذا الجانب الغامض من بناء الكعبة.

إن أمر كهذا ينتقص من كفاءة قريش ومقدرتهم البنائية، فيما لو سلمنا بأن البناء كان يسير دون تخطيط ومراقبة. فهم يعرفون ولا شك ما في البناء من مظاهر الجمال ومساوئ القبح، فقد تغنوا بالجمال ومفاتنه، وأدركوا تأثيره وسحره للعيون والعقول، وقد حاول بعض المستشرقين الطعن في حضارة العرب من هذا الجانب(٢٢٣)، فما المخرج من هذا الاتهام، وهل نصدق بأن الأمر منطبق على قريش وبناءها للكعبة؟ وهم رمز العروبة والإسلام. وأقدر العرب على النهوض بمستوى البناء في ذلك الوقت.

لا سبيل في ذلك إلا بالرجوع إلى وصايا المجمع الأول لقريش – قصي بن كلاب – الذي نصحهم بعد أن وزع بين زعمائهم الأرض المحيطة بالمطاف فأشترط، ألا تعلو بيوتهم على بناء الكعبة(٢٢٤)، وظل هذا الأمر مرعياً حتى تضخمت تجارة قريش، وتوسع العمران بازدياد السكان في مكة، وارتفعت البيوت في سفوح الجبال وقممها؛ ولم يعد أمام قريش من حل إلا الارتفاع ببناء الكعبة على ما سبق وصفه، سيما وقد ردمت قريش من الكعبة حوالي المترين لأسباب أمنية واجتماعية أوضحناها فيما سبق(٢٢٥). وصار من المتعذر استخدام هذا الجزء المدفون إلا في تخزين بعض كنوز الكعبة(٢٢٦).

فلو فرضنا أنهم اقتصروا على الارتفاع الذي كانت عليه الكعبة في السابق وهو تسعة أذرع (٥ , ٤ م)، مع إصرارهم على رفع الباب عن مستوى المطاف بحوالي ٢٥ , ٢سم، لكانت عتبة الباب العلوية مساوية لسقف الكعبة، وهو عيب ملحوظ أدركته قريش، وتداركته، فكان في نظر الباحث أحد الأسباب التي دفعتهم إلى مضاعفة ارتفاعها. لكي تبدو متناسقة في مظهرها الخارجي والداخلي.

تسقيف الكعبة:

يحتاج هذا الأمر الذي يكتنفه الغموض إلى توضيح يبين أسبابه ودواعيه، فلماذا سقفتها قريش؟ ولماذا كان سقفها مسطحاً؟ ولم يكن مقبباً بالعقود المتجاورة المعروفة في العمائر المحيطة بالجزيرة العربية آنذاك[٢٢٧]؟ أو مقبباً[٢٢٨]. إن تسقيف مساحة بطول عشرة أمتار وعرض ثمانية أمتار وربع المتر تقريباً[٢٢٩]، وبارتفاع يقارب سبعة أمتار[٢٣٠]؛ ليس بالأمر الهين في تكلفته وإنجازه بالأتقان الضامن لحماية الكعبة من المطر وآثاره، ويزيد من التكلفة إذا كان السقف من طبقتين، كما كان حاله في عمارة ابن الزبير سنة ٦٤هـ[٢٣١]، وواقعه اليوم[٢٣٢].

وإذا سلمنا بالشخصية الوهمية التي لازمت بناء قريش من البداية (باقوم الرومي)[٢٣٣]، فإن فكرة التسقيف بالقبو قد طرحت من البداية على قريش على لسان باقوم عندما اقترح بناءها على الطريقة الشامية[٢٣٤]، فرفضتها قريش، واختاروا التسقيف بالخشب[٢٣٥]، الذي اعتادوا عليه في مبانيهم وعرفوا مصادره[٢٣٦]، إلا أن وجود أخشاب بطول الضلعين القصيرين من الكعبة (الشمالي والجنوبي)، أي عشرة أمتار تقريباً. (الشكل رقم ١)، نادر الوجود وغالي الثمن إن وجد في البيئة المحلية كشجر العرعر[٢٣٧] في الطائف وضواحيها، أو الدوم[٢٣٨] في المناطق الساحلية وبطون الأودية البعيدة عن مكة المكرمة.

ولذلك فإن فكرة اللجوء إلى المدن البحرية، للبحث عن الأخشاب اللازمة لتسقيف الكعبة، وفقاً للمواصفات السابقة، على ظهور السفن القادمة من بلاد الشام أو الهند، خاصة السواري في السفن المعطوبة، مقبولة ومناسبة في هذه المرحلة من بناء الكعبة، سيما وقد ذكرنا من قبل احتمال البحث عن المواد اللازمة للبناء قبل الشروع في الهدم، كما فعل أبي الزبير سنة ٦٤هـ[٢٣٩]. ويدعم هذا التوجه في البحث عن الأخشاب المناسبة، ما ذكره الأزرقي من المعاناة التي قابلت قريش في حل هذه المشكلة فقد اضطروا إلى جلب الأحجار اللازمة للبناء من عدة ضواحي[٢٤٠].

وتحسباً لأى خلل يصيب سقف الكعبة، عمد البناءون إلى تدعيم السقف المؤلف من ثلاث عوارض رئيسية تمتد من الشرق إلى الغرب، وفوقها العوارض الثانوية الممتدة من الشمال إلى الجنوب، بست دعائم وضعت في صفين[٢٤١] أي بواقع دعامتين تحت كل من الدعائم الثلاث الرئيسية (الشكل رقم ٥).

ولا مجال للقول بأن للدعائم المذكورة وظيفة غير إسناد السقف وتدعيمه[٢٤٢]، ولابد لسطح الكعبة من عناية خاصة، تمثلت في اختيار المؤنة اللازمة للميول والتسوية، حتى لا تتسرب المياه إلى الداخل، وليسهل تصريفها من خلال الميزاب (المرزاب)[٢٤٣] الذي وضع بأعلى الجدار الشمالي[٢٤٤] كما هو حاله اليوم.

ولتسهيل الوصول إلى سطح الكعبة، أثناء العمارة وبعدها، استحدثوا درجاً في الركن الشمالي الشرقي من داخل الكعبة[٢٤٥] عرف بابه فيما بعد بباب التوبة[٢٤٦]، ليعين على التسقيف، ويساعد على إسدال الستارة وربطها[٢٤٧] فيما بعد.

ستارة الكعبة:

كانت من لوازم الكعبة قبل بناء قريش[٢٤٨]، وقد اضطرهم الارتفاع المحدث في بناء الكعبة إلى مضاعفة القطع التي يتألف منها النسيج الذي تكسى به، فهل أعدوا الكسوة ولوازمها من الحبال والخيوط قبل أن يكتمل البناء؟. وبالتالي يتأكد عزمهم على الزيادة في ارتفاعها قبل مباشرة الهدم والبناء، أم أن الأمر بخلاف ذلك.

إن الحصول على نسيج بمساحة ٣٩٦م^{٢} تقريباً[٢٤٩]، تحتاج إلى وقت طويل في إعداده ونسجه وفق المواصفات المطلوبة، ويزداد الأمر صعوبة إذا علمنا مصدر الكسوة التي أحضرتها قريش من اليمن[٢٥٠]، وكانت من الحبرات الموشاة بالأبيض والأسود[٢٥١].

وتعرف بالوصايل أيضاً[٢٥٢]. ومما لا يجوز الشك فيه، أن قريش كانت تعد المال، وتتفق مع النساجين في البلد المصنع قبل حلول الموعد المعتاد لتعليق الكسوة بوقت كاف لصنعها وإحضارها إلى مكة، وفق وسائل النقل المتاحة آنذاك.

وتأكيداً على عظم التكلفة ذكر الأزرقي أن قريش كانت توزع نفقاتها قبل هذا البناء أو بعده على القبائل حسب قدرة كل منها، حتى كفاهم أحد أثرياء قريش مؤنة ذلك[٢٥٣]، وتعهد بكسوة الكعبة، والمداومة على ذلك بالتناوب مع قريش، فكان يكسو سنة وقريش سنة، وعرف بين قومه بالعدل.

تزويق الكعبة:

إن إقدام قريش على تزيين الكعبة من الداخل بالصور الملونة والمحفورة في الأعمدة الخشبية، أمر يقطع الشك باليقين، بأن المقصود من بناء الكعبة الارتقاء بمظهرها الخارجي والداخلي؛ إلى المدى الذي وصلت إليه حياتهم الاجتماعية، وعلاقتهم الخارجية التي جلبت إلى مكة رقيقاً وعمالاً وتجاراً مسيحيين وغير مسيحيين[٢٥٤]، ولابد أن القرشيين من خلال رحلاتهم التجارية، شاهدوا كنائس الشام ومصر وبلاد الحبشة[٢٥٥]، وما يزينها من الصور والأيقونات[٢٥٦]، لمريم وابنها المسيح عليهما السلام[٢٥٧]، واطلعوا في رحلاتهم بعد عام الفيل إلى بلاد اليمن على الكنيسة التي بناها أبرهة في اليمن، والمعروفة بالقليس، وأمعنوا النظر في متانتها وحسن تنظيمها، وما حفلت به من الزينة والزخارف حتى قال أبرهة في خطابه إلى النجاشي: "بنيت لك بصنعاء بيتاً لم تبن العرب ولا العجم مثله، وقد أراد له أن يكون محجاً للعرب بدل الكعبة المشرفة:[٢٥٨]. وقد نقل الأزرقي أوصاف هذا المبنى بما يشبه حال الكنائس البيزنطية المشهورة بزخارفها الداخلية والخارجية.

إن حادثة الفيل المشهورة في التاريخ الجاهلي، والتي انتهت بجعل كيد أبرهة وجيشه في تضليل، ضلت مثاراً للدهشة والاستغراب عند غير العرب من الأحباش والفرس والروم. ومثار للسخرية والاستهزاء من العرب بالقليس، وما يرمز إليه من عبادة لم تجد لها في البيئة القرشية من يمارس طقوسها أو يدعو إليها. إلا أن العلاقات التجارية المتنوعة أوجدت رواسب من الطقوس في البلدة التي تعظمها العرب جميعها، فمثلوا لها بنماذج في داخل الكعبة المشرفة. فقد أورد البخاري حديثين يتضمنان وجود

صور ومجسمات في الكعبة عام الفتح، أحدها لإبراهيم عليه السلام وهو يستقسم بالأزلام[٢٥٩]، وأخرى لمريم وابنها المسيح عليهما السلام[٢٦٠].

ولا يمكن تنفيذ هذه الصور التي أكثر المؤرخون من ذكرها[٢٦١]، إلا بعد تسوية جدران الكعبة بالجص والنورة[٢٦٢]، لأن الوجه الداخلي من جدران الكعبة، كان يتم في عهد قريش وبعده بأحجار لا تشابه الأحجار الموجودة في الوجه الخارجي، فهي خليط من الأحجار المختلفة الأحجام، تبنى بغير انتظام، ولا تفسير لذلك إلا بالاعتقاد أنها من بقايا الأحجار التي كانت في البناء الذي هدمته قريش، وتظهر بوضوح في الترميم الذي أجري للكعبة سنة ١٤١٧هـ[٢٦٣] (الشكل رقم ٤ب).

ولا يعرف على وجه اليقين متى علقوا القصائد المعروفة بالمعلقات السبع[٢٦٤] في جوف الكعبة، إلا أن جودتها وشهرة أصحابها دفعت قريش إلى حفظها، مما يزيد من تعلق العرب بهذا البيت، كما أن حرصهم على وضع صحيفة المقاطعة[٢٦٥] التي عادوا بها الدعوة في بدايتها في هذا المبنى المقدس، يكشف عن جانب من هذا الالتفاف حول رمزية الكعبة ووحدتها، ولا يخرج عن هذا الهدف إحاطة الكعبة بأصنام العرب التي وصل عددها عند الفتح إلى ثلاثمائة وستون صمناً[٢٦٦].

ويتأكد هذا الدعم من قريش في تعظيم الكعبة وربط العرب بها ما انفرد بذكره الفاكهي[٢٦٧] من أن حلف الفضول الذي صان تجارة قريش من عبث المماطلين للغرباء المتأجرين مع قريش. لم يتم إلا بعد فراغهم من بناء الكعبة المشرفة، فهل يشك أحد بعد ما أوردناه من الأدلة المتنوعة، في أن قريش إنما أرادت ببناء الكعبة الارتقاء بمظهرها الخارجي والداخلي، ليتلاءم مع المكانة العالية التي وصل إليها المجتمع القرشي المتخم بالمال الذي ميزهم عن بقية العرب.

فاعتدوا بذلك كله في خروجهم إلى بدر. وعبر القرآن الكريم عن هذا الاستعلاء والغرور بقوله تعالى: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[٢٦٨].

نتائج البحث:

١- اختفت بمجيء الإسلام المبالغات التي صاحبت المراحل الأولى من هدم الكعبة في عهد قريش، كاهتزاز الجبال وتطاير الشرر عند محاولة تحريك بعض القواعد، ونزو بعض الأحجار من يد أحد المباشرين للهدم، وعودته إلى مكانه الأول. فلم يثبت مثل ذلك في عمارة عبدالله بن الزبير سنة ٦٤-٦٥هـ، ولا في عمارة عبدالملك بن مروان سنة ٧٥هـ، ولا في عمارة الدولة العثمانية سنة ١٠٤٠هـ.

بل إن أقدس أحجار الكعبة وأهمها على الإطلاق – الحجر الأسود – قد ضرب بالحديد أكثر من مرة، كما نزع من مكانه وغيب عن الكعبة المشرفة ما بين سنة ٣١٩-٣٣٩هـ، ولم يحدث لذلك شيء من العجائب، كما أن ترميم الدولة السعودية للكعبة في سنة ١٤١٧هـ خلا من الأحداث المخالفة للعقل والمنطق.

٢- إن تأخر قريش في بنائها للكعبة حتى اشتهر أمر محمد بن عبدالله بينهم بالصدق والأمانة، فحَكَّموه في الخلاف الذي ظهر بينهم عند إعادة الحجر إلى مكانه، فرضوا بحكمه، كان شرف ادخره الله لمن يعده المولى لإبلاغ رسالة التوحيد إلى الثقلين قاطبة.

٣- إن بواعث هذا البناء غير ما ذكر في النتيجة السابقة يتجلى في رغبة قريش في الارتقاء بجمالية بناء الكعبة التي يقدسها العرب جميعاً، لتتناسب مع مستوى الرخاء الذي بلغته قريش في هذه المرحلة من تاريخها الذي ميز مكانتها الاجتماعية بين سائر العرب الذين جاءوا بنسخ من أصنامهم ليضعوها حول الكعبة، وقالوا: "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى".

٤- إن رفعهم لباب الكعبة بحوالي مترين وربع، ودفنهم لمساحة تقدر بـ ١٩٥م٣ (١١×٨×٢٥,٢م)، قد أخر البناء واقتطع جزءاً من المبلغ المرصود لبناء الكعبة، هذا فضلاً عن الزيادة في ارتفاعها بمثل ارتفاعها الأول أي حوالي ٤,٥م.

٥- إن الرواية التي تسند بناء الكعبة إلى نجار حبشي يدعى باقوم، قد بطل الاحتجاج بها؛ إلا في مرحلة متأخرة من مراحل البناء عندما احتاجوا إلى تسقيف الكعبة بأخشاب طويلة، لا تتوفر إلا في سواري السفينة المعطوبة أو فيما تحمله من أخشاب شرق آسيا أو أفريقيا.

٦- إن الكسوة اللازمة لتغطية جدران الكعبة التي تضاعفت مساحتها، توجب على القائمين بأمر البناء البحث عن النسيج اللازم لها في وقت مبكر من بدء البناء، سيما وأن مصدرها كان بلاد اليمن، وتطلب وصولها فترة طويلة، مما يرجح اتخاذ القرار في رفع البناء قبل البدء في الهدم وطلب الكسوة الجديدة.

٧- إن مساحة الجزء الذي أنقصته قريش من جانب الكعبة الشمالي مما يلي الحجر، لا يزيد عن ٢٢م٢؛ إلا قليلاً (٢٠,٩× ٤١,٢م)، وتكلفة هدمه وإعادة بنائه ليست كبيرة، ولا تؤثر في الإخلال بميزانية البناء. إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنهم أنفقوا بعض المال على حفر وبناء الأساس الذي أقيم عليه الجدار المستحدث في داخل القواعد القديمة، مما يجعله في قوة وإحكام القواعد الإبراهيمية.

٨- إن رفع الباب الشرقي وسد الغربي يجعل المواد التي دفن بها هذا لجزء المدفون من لكعبة، مصدر ضرر في حال دخلت السيول إلى الكعبة، وتشبع الدفان بالماء، وتسبب في زحزحة الجدران وتشققها، كما حدث بعد سيل سنة ١٠٣٩هـ.

٩- إن قوة البناء الذي أنجزته قريش قبل البعثة الشريفة بخمس سنوات، مكّن الكعبة المشرفة من البقاء بحالة سليمة أكثر من ثمانين سنة حتى قرر عبدالله بن الزبير رضي الله عنه إضافة الجزء المنقوص من جانبها الشمالي سنة ٦٤- ٦٥هـ والزيادة في ارتفاعها بمقدار الثلث. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الأشكال والصور

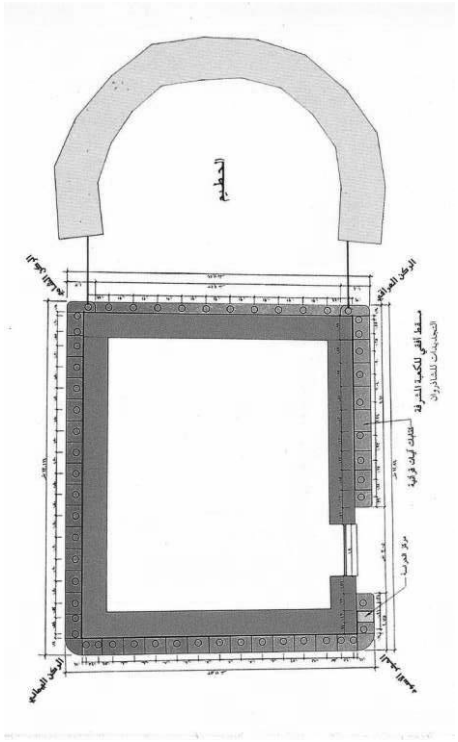

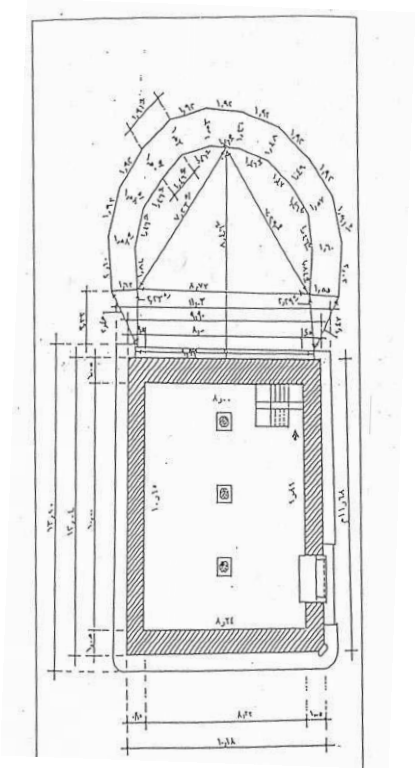

شكل رقم (١)

عن مركز أبحاث الحج

عن الكردي في كتابه (الكعبة والحرمان الشريفان)

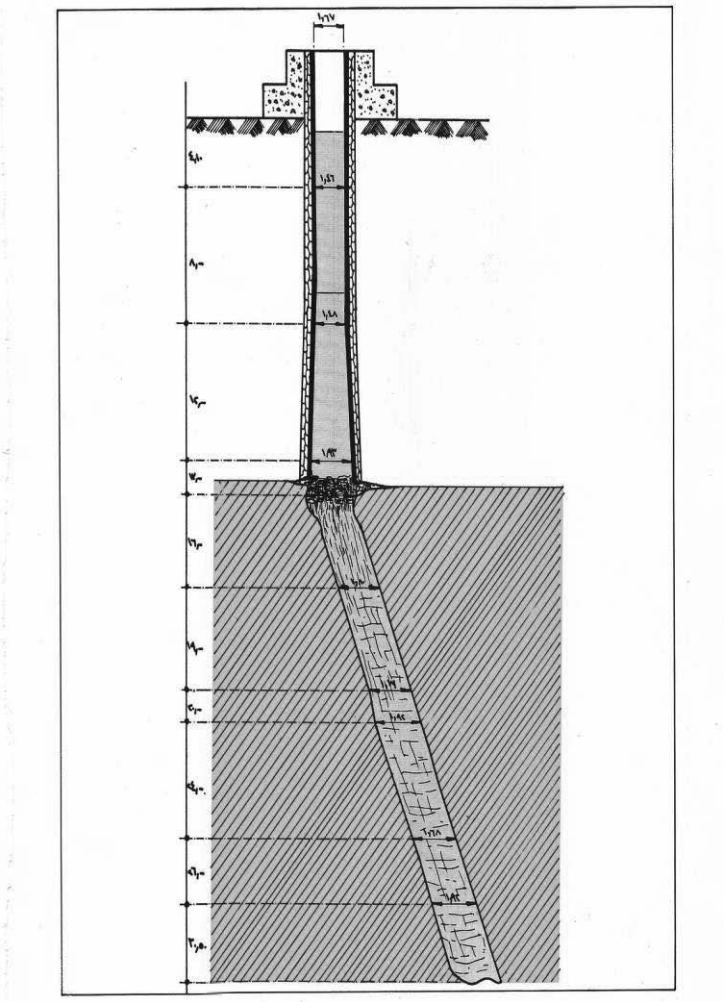

شكل رقم (٢)

صورة قاع زمزم عن يحيى كوشك في كتابه (زمزم طعام طعم وشفاء سقم)

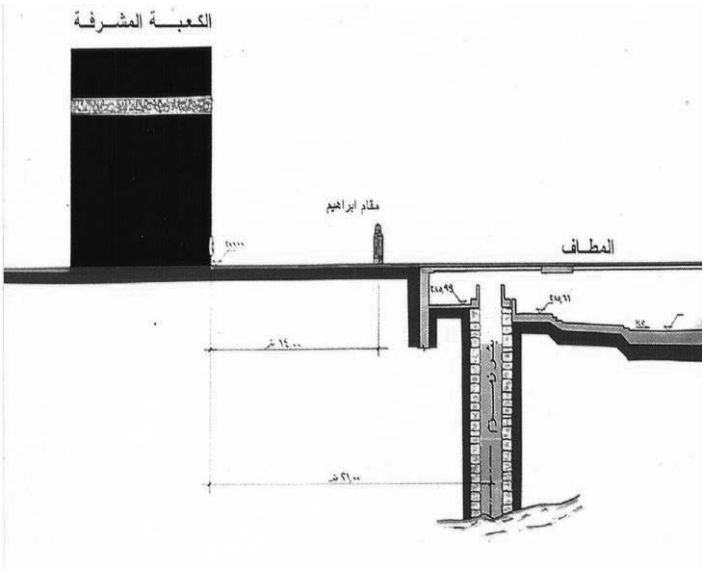

شكل رقم (٣)

بُعد زمزم عن الكعبة، عن الكردي (الكعبة المشرفة والحرمان الشريفان)

شكل رقم (٤ أ)

البناء الخارجي للكعبة اليوم، عن الكردي (الكعبة والحرمان الشريفان)

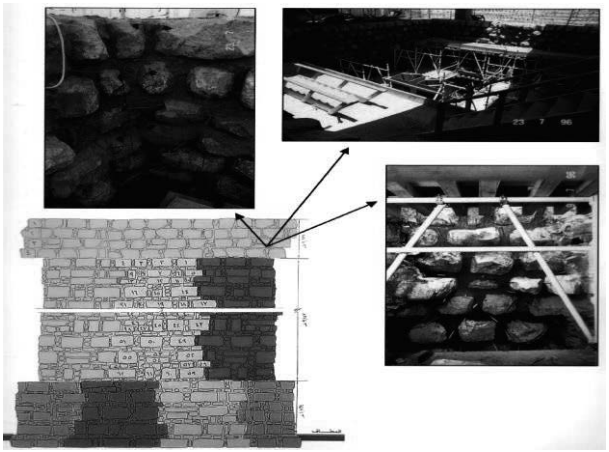

شكل رقم (٤ب)

البناء الداخلي لواقع الكعبة اليوم، عن الكردي (الكعبة والحرمان الشريفان)

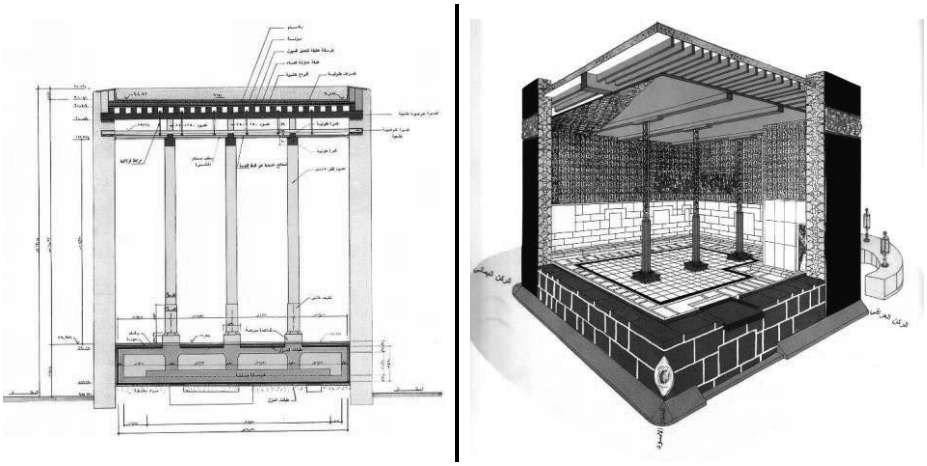

شكل رقم (٥)

صورة جدران الكعبة وسقفها اليوم، عن الكردي (الكعبة والحرمان الشريفان)

وكان بالمبنى في عهد قريش ستة أعمدة من الخشب، ثلاث منها في موضع الأعمدة الحالية، وثلاث في الغرب منها موازنة لجدار الكعبة الغربي، وتمتد عوارض الخشب عليها من الشرق إلى الغرب بواقع عارضة فوق عمودين. ومن فوقها عوارض كثيرة تمتد من الجنوب إلى الشمال.

هذا إذا كان لها سقف واحد، أما إذا كان لها سقفان وهو أمر لم أجد له ذكر في المصادر التاريخية فإن ترتيب الخشب سيكون مماثلاً لما في السقف الأول.

الهوامش والتعليقات:

(١) سورة الحج: ٢٦.

(٢) سورة البقرة: ١٢٧.

(٣) القرطبي: محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ١٥جزء، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢/ ٦٩)؛ الشوكاني: محمد بن علي، فتح القدير، ٤أجزاء، مكتبة الرشد، الرياض، (١/ ١٢٢).

(٤) الرضم البناء بالحجارة المختلفة الأحجام، والتي لم تنحت على نسق واحد، والمعروفة بالدبش، أو البناء الغشيم. انظر: ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، طبعة بيروت، (١٢/ ٢٤٣). غالب، عبدالرحيم، موسوعة العمارة الإسلامية، جروس برس، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، (ص١٨٤، ٢٠٤).

(٥) المصراع درفة الباب، والمصراعان درفتان لمدخل واحد، ابن منظور، المصدر السابق، (٨/ ١٩٩).

(٦) قيل قبل البعثة الشريفة بخمسة عشر عاماً. انظر: البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار السلام، الرياض، ١٤١٧هـ، كتاب الحج، باب فضل مكة، الحديث رقم ١٥٨٦؛ وقيل بخمسة أعوام. انظر: ابن هشام: محمد بن عبدالملك، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، ط٤، البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧٥هـ، (١/ ١٩٢)؛ الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار المعارف، (٢/ ٢٩٠).

(٧) سورة الحج: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٧٨.

(٨) قيل أن هذا البناء تعرض للتجديد ثلاث مرات. انظر: باسلامة: حسين عبدالله، تاريخ الكعبة المعظمة، تعليق: يوسف الثقفي، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤١٩هـ، ص٨٣ – ٨٧. وهي أخبار ضنينة لا تملك الدليل على صحتها.

(٩) الأزرقي، محمد بن عبدالله ت٢٢٣هـ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، جزءان، تحقيق: رشدي ملحس، دار الثقافة، مكة المكرمة، ط٣، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، (١/ ١٥٨)؛ الطبري، المصدر السابق، (٢/ ٢٨٧).

(١٠) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار العلم، بيروت، ط٢، ١٩٧١م، (٧/ ٢٨٥، ٤٢١).

(١١) المرجع نفسه ص٢٨٥، ٤٢١.

(١٢) انظر ص١٠.

(١٣) الفاكهي: أبو عبدالله محمد بن إسحاق، أخبار مكة في قديم الدهر وجديده، ٦ أجزاء، دراسة وتحقيق عبدالملك بن دهيش، ط٣، دار خضر، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، (٥/ ١٦٦).

(١٤) انظر ص١.

(١٥) الأزرقي، المصدر السابق (١/ ٦٤).

وقدر الذراع بحوالي ٥٠سم. انظر: هنتس، فالتر: المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة: كامل العسلي، الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م، ص٨٨.

(١٦) البخاري، المصدر السابق، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنياتها، الحديث رقم (١٥٨٦)؛ النيسابوري، مسلم بن الحجاج ت٢٦١هـ، صحيح مسلم، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، كتاب الحج، باب نقض الكعبة، الحديث رقم (٤٠٢)؛ الأزرقي، المصدر السابق (١/ ٦٤)؛ الكردي، عبدالله محمد، الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان، مجموعة بن لادن السعودية، (ص١٥٢).

(١٧) كانت أبعادها على ما ذكره الأزرقي في المصدر السابق (١/ ٦٤) على النحو التالي:

الشرقي ٣٢ذراعاً، والغربي ٣١ ذراعاً، والجنوبي ٢٠ ذراعاً، والشمالي ٢٢ذراعاً.

(١٨) الأزرقي، المصدر السابق (١/ ٣٥٥)؛ باسلامة، المرجع السابق، (ص٤٢ – ٨٧)، وقد عدد باسلامة في كتابه السابق بعضها، فقال: بناء الملائكة آدم أولاده إبراهيم الخليل بناء العمالقة جرهم قصي قريش.

(١٩) باسلامة، المصدر السابق، (ص٦٩).

(٢٠) سورة البقرة: ١٢٥ – ١٢٧، سورة الحج: ٢٦.

(٢١) البخاري، المصدر السابق، كتاب الحج، باب فضل مكة، الحديث رقم (١٥٨٢، ١٥٨٣)؛ العسقلاني، ابن حجر ت٨٥٢هـ، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، (٧/ ٦١).

(٢٢) الأزرقي، المصدر السابق، (١/ ٢٠١، ٢٠٢)؛ باسلامة، المصدر السابق، (ص١٣٠).

(٢٣) ابن هشام، المصدر السابق، (١/ ١٨٤)، مؤنس: حسين، تاريخ قريش، الدار السعودية، جدة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، (ص١٨٤).

(٢٤) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٠٧)؛ الفاسي، تقي الدين محمد ت٨٣٢هـ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر عبدالسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، (٢/ ١١٠)؛ ابن كثير: أبو الفداء ت٧٧٤هـ، البداية والنهاية، ١٢ جزء، تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرون، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، (١/ ١٩٢).

(٢٥) العسكري: أبو هلال، جمهرة الأمثال، تحقيق: عبدالمجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، (١/ ٧٣٤)؛ الزبيدي: مرتضى الحسيني، تاج العروس، تحقيق: مصطفى حجازي، دار الهداية، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، (١٧/ ٢٨٨)؛ الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٧١، ١٧٢) وانظر ص١٥٨ وما بعدها؛ الفاسي: المصدر السابق، (٢/ ١١٥)؛ مؤنس: المرجع السابق، (ص٦٤٢).

للقصة روايات أخرى لا تذهب إلى هذا المستوى المتدني من كيفية انتقال السلطة إلى قصي. انظر الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٠٥ – ١٠٧)؛ الطبري، المصدر السابق، (٢/ ٢٥٥).

(٢٦) الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٧٢).

(٢٧) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩٧، ١٠٠)؛ مؤنس: المرجع السابق، (ص٩٨).

(٢٨) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١١٠ – ١١٢)؛ الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٧٣، ١٨٢)؛ الفاسي: المصدر السابق، (٢/ ١٢١).

(٢٩) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٠٧، ١٠٩، ١١٠)؛ الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٧٢، ١٨٢)؛ الفاسي: المصدر السابق، (٢/ ١١٢)؛ مؤنس: المرجع السابق، (ص١٠٣، ١٠٦، ١٠٩).

(٣٠) الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٧١، ١٧٢)؛ الفاسي: المصدر السابق، (١/ ١١٦).

(٣١) الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٦٦).

(٣٢) العقاد: عباس محمود، العبقريات الإسلامية، دار الأدب، بيروت، (ص١٢٩، ١٣٠).

(٣٣) مسلم، المصدر السابق، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم، الحديث رقم (٢٢٧٦).

(٣٤) ابن حنبل، أحمد ت٢٤١هـ، المسند، بيت الأفكار الدولية، الرياض، مسند الشاميين، الحديث رقم (١٧٦٥٨٩)، ورجاله رجال الصحيح.

ويمكن إخضاع الروايات التي ترد متناقضة في تاريخ قريش لمضمون هذين الحديثين مضافاً إليهما ما ورد في سنن الترمذي، باب المناقب (٣٦٠٧ – ٣٦٠٨)؛ ومجمع الزوائد للهيثمي (٨/ ٢١٥ – ٢١٦).

(٣٥) انظر الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١١٠)؛ الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٦٦، ١٧٦، ١٧٨).

(٣٦) الفاسي: المصدر السابق، (٢/ ١١٨)؛ مؤنس: المرجع السابق، (ص١٠٦).

(٣٧) الفاكهي: المصدر السابق (٥/ ١٨٢).

(٣٨) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٠٩، ١١١، ١١٥)؛ الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٨٢)؛ الفاسي: المصدر السابق، (٢/ ١٤٧)؛ مؤنس: المرجع السابق، (ص١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٦).

(٣٩) البخاري: المصدر السابق، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة، الحديث رقم (٣٩٠٥). والقارة والأحابيش بعض قبائل من العرب، تحالفت مع قريش ومعظمهم من كنانة وخزاعة، انضم بعضهم إلى بعض للدفاع عن أنفسهم. انظر: ابن هشام، المصدر السابق، (١/ ٢٥٥، ٣٧٣)، الفاسي: شفاء الغرام، (٢/ ١٥٥)، ومؤنس: مرجع سبق ذكره، ص١١٣.

(٤٠) الطبري: المصدر السابق، (٢/ ٢٥٢)؛ ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ١٣٧)؛ الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١١١)؛ الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٨٣)؛ مؤنس: المرجع السابق، (ص١١٧).

(٤١) ابن كثير: المصدر السابق، (٨/ ١٤٠)؛ مؤنس: المرجع السابق، (ص١١٨، ١١٩).

(٤٢) الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٨٠، ١٨١)؛ الفاسي: المصدر السابق، (٢/ ١٢٣ – ١٢٤).

(٤٣) كان اسمه عمراً فصار هاشماً لتهشيمه الخبز لقومه. انظر: الفاسي: المصدر السابق، (٢/ ١٢٤).

(٤٤) الطبري: المصدر السابق، (٢/ ٢٥٢)؛ مؤنس: المرجع السابق، (ص١١٩).

(٤٥) الطبري: المصدر السابق، (٢/ ٢٥٤)؛ مؤنس: المرجع السابق، (ص١٢٠).

(٤٦) البكري:عبدالله بن عبدالعزيز (ت٤٨٧هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، جزاءان، تحقيق:مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، (٢/ ٩٩٧).

(٤٧) الطبري: المصدر السابق، (٢/ ٢٥٢).

(٤٨) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١١٤).

(٤٩) سماها المولى في سورة المسد كيداً. الآية رقم ٢. انظر:ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ٥٧، ٦٠).

(٥٠) سورة الفيل: ١ – ٥.

(٥١) ابن هشام، المصدر السابق، (١/ ٣٧).

(٥٢) ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ١٥٣).

(٥٣) هيكل: محمد حسين، حياة محمد صلى الله عليه وسلم، ط١٣، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٨م، (ص١٠٥).

(٥٤) العقاد: المرجع السابق، (ص٩٦).

(٥٥) مؤنس: المرجع السابق، (ص١٥٢، ١٦١)؛ وعن الأصنام وأسمائها انظر: العقاد: المرجع السابق، (ص٤٨، ٨٠)؛ علي، جواد: المرجع السابق، (٦/ ٤٣٦).

(٥٦) الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٨٠).

(٥٧) الفاكهي: المصدر نفسه، (٥/ ١٨٠).

(٥٨) الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٨٠، ١٩٩) فذكر بعد عبد المطلب الزبير وأبو طالب وحرب بن أمية وأبو سفيان بن حرب والعلاء بن الحارثة الثقفي والوليد بن المغيرة وقيس بن عدي والعاص بن وائل والخطاب بن نفيل؛ وانظر: الفاسي: المصدر السابق، (٢/ ١٧٠).

(٥٩) انظر أوله ص٧.

(٦٠) مؤنس: المرجع السابق، (ص١٦٤، ١٦٦).

(٦١) الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٩٠، ١٩١)؛ ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ١٣٣) وما بعدها؛ ابن كثير: المصدر السابق، (٢/ ٢٠٢)؛ الفاسي: المصدر السابق، (٢/ ١٥٧، ١٧٠)؛ هيكل: المرجع السابق، (ص١١٧).

(٦٢) عقد الحلف بعد حرب الفجار بين خمسة بطون من قريش: بنو هاشم، بنو المطلب، بنو أسد، بنو زهرة، بنو تيم، واختاروا دار ابن جدعان لكبر سنه وشرفه فيهم. انظر: الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٩١).

(٦٣) مؤنس: المرجع السابق، (ص١٧٠).

(٦٤) الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٩٥).

(٦٥) ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ١٣٤).

(٦٦) ابن كثير: الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد الخطراوي، محي الدين منو، ط٦، مكتبة التراث، المدينة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، (ص٩٣).

(٦٧) ابن هشام: المصدر نفسه، (١/ ١٨٠).

(٦٨) ابن هشام: المصدر نفسه، (١/ ٣٨٩)؛ الفاكهي: المصدر السابق، (٣/ ١٧٥).

(٦٩) العقاد:المرجع السابق، (ص٧٤، ٧٥)؛ وعن المكاييل والأوزان في الجاهلية، انظر: جواد علي: المرجع السابق، (٧/ ٦٢٠)؛ انظر: سورة المطففين: ١ – ٦.

(٧٠) هود: ٨٣، ٨٤، ٨٥؛ الشعراء: ١٧٦؛ الأعراف: ٨٥.

(٧١) الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٨٠)؛ الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١١٥).

(٧٢) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١١٢، ١١٤)، وكانت القيادة لأبي سفيان بن حرب بعد والده، والسدانة لبني طلحة، وكان اللواء في يد بني عبد الدار، ودار الندوة لبني عبد مناف.

(٧٣) ابن هشام، المصدر السابق، (٢/ ٤١٢).

(٧٤) ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ٣١٦).

(٧٥) المصدر السابق، (٨/ ١٤٠).

(٧٦) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٥٩).

(٧٧) ابن هشام، المصدر السابق (١/ ١٢٥، ١٣٠).

(٧٨) ابن هشام، المصدر السابق، (١/ ٤٨١)؛ الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١١٠).

(٧٩) القرطبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد ت٦٧١هـ، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٦/ ٥٦)؛ وانظر: الشوكاني: علي بن محمد ت١٢٥٠هـ، فتح القدير، ٤أجزاء، تحقيق: فريال علوان، مكتبة الرشد، الرياض، (٤/ ٥٠)؛ وانظر: ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ٣٦١).

(٨٠) المصدر السابق، (١/ ١٦١).

(٨١) طالعت معظم الكتب المؤلفة عن الكعبة المشرفة كالمقريزي في كتاب بناء الكعبة البيت الحرام؛ وحسين عبدالله باسلامة، في كتابه تاريخ الكعبة المعظمة؛ علي حسني الخربطلي في كتاب تاريخ الكعبة؛ محمد بن ناصر الملحم في بحثه المطبوع صفحات في تاريخ الكعبة المشرفة، او عبدالغفور عطار في كتابه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، أو ممن خصها بفصل مطول في كثير من الكتب التي ألفت عن مكة المكرمة، فلم أجد إلا النقل والتكرار حتى ممن اشتهر بالبحث المعمق كالعقاد في مطلق النور أو عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم؛ أو هيكل في كتابه حياة محمد صلى الله عليه وسلم.

(٨٢) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٠).

(٨٣) سورة النساء، آية ١٢٥.

(٨٤) وهم المتشددون في دينهم. انظر: البخاري: المصدر السابق، كتاب التفسير، باب ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، الحديث رقم (٤٥٢٠)؛ الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٧٦، ١٧٩).

(٨٥) الأزرقي:المصدر السابق، (١/ ١٧٩).

(٨٦) سورة البقرة: آية ١٩٩؛ الأزرقي، المصدر نفسه، (١/ ١٧٧).

(٨٧) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨)؛ ابن هشام، المصدر السابق، (٢/ ٥٤٥، ٥٤٦).

(٨٨) الأزرقي: المصدر نفسه، (١/ ١٧٣، ١٧٧)؛ ابن كثير: البداية، (٢/ ٢٨٣).

(٨٩) انظر: مؤنس: المرجع السابق، ص١٥٢.

(٩٠) البخاري: المصدر السابق، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح، الحديث رقم (٤٢٨٧)؛ مسلم: المصدر السابق، كتاب الجهاد، باب إزالة الأصنام، الحديث رقم (١٧٨١)؛ ابن هشام، المصدر السابق، (٢/ ٤١٧).

(٩١) ابن هشام: المصدر السابق، (٢/ ٤١٨)؛ وانظر: القرطبي: المصدر السابق، (٥/ ١٥٢)، في تفسير قوله تعالى في سورة الزمر آية رقم ٣: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾؛ الشوكاني: المصدر السابق، (٣/ ٥٨٢)؛ مؤنس: المرجع السابق، (ص١٣٩، ١٥٢).

(٩٢) ابن هشام، المصدر السابق، (١/ ٤١٨)؛ ابن كثير، المصدر السابق (٣/ ١٢٢).

(٩٣) سورة قريش/ ١، ٢؛ وانظر: هيكل: المرجع السابق، (ص١٠٣)؛ جواد علي: المرجع السابق، (٧/ ٤٣٨) وما بعدها.

(٩٤) المدثر: ١١ – ٢٤؛ انظر: القرطبي: المصدر السابق، (١٩/ ٤٧)؛ الشوكاني: المصدر السابق، (٤/ ٣٧٧).

(٩٥) ذكر القرطبي في المصدر السابق، (١٩/ ٤٧) عن رواة عدول أن الدخل السنوي لهذا الثري ما بين ألف دينار، ومليون دينار؛ وانظر: مؤنس: المرجع السابق، (ص١٩٤).

(٩٦) مؤنس: المرجع نفسه، (ص١٩٤).

(٩٧) ابن حجر: المصدر السابق، (٣/ ٣٥٠، ٣٥١).

(٩٨) المصدر نفسه، (٤/ ٣٤)؛ ابن كثير: البداية، (٢/ ٢١٢). وهي أنواع من الأطعمة كان يبسطها لمن احتاجها من رواد مكة دون مقابل.

(٩٩) جواد علي: المرجع السابق، (٧/ ٤٣٨). وعن المراثي التي قيلت في موته انظر: الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ١٩٧).

(١٠٠) جواد علي: المرجع السابق، (٧/ ٤٢١).

(١٠١) ابن هشام، (٢/ ٦٠٣)؛ وانظر: الشريف: أحمد إبراهيم، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، ص٢١٣.

(١٠٢) سالم: عبدالعزيز: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (ص٣١١).

(١٠٣) ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ٣٧٧) الحاشية رقم٢.

(١٠٤) العسقلاني: المصدر السابق، (٤/ ٢٩٣).

(١٠٥) ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ٢٥٠، ٣١٩).

(١٠٦) الطبري: المصدر السابق، (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦)؛ ابن هشام، المصدر السابق (٢/ ٦٠٣).

(١٠٧) ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ١٨٧ – ١٨٩)؛ العسقلاني: المصدر السابق، (٨/ ١٠١).

(١٠٨) العسقلاني:المصدر السابق، (٦/ ٩٨). وعن المال وأصحابه في مكة قبل البعثة، انظر: جواد علي: المرجع السابق، (٧/ ٤١٥ – ٤٥٤).

(١٠٩) كان الدينار عملة بيزنطية عليها إشارة الصليب، والدرهم عملة فارسية عليها شعلة من النار، وفي الوجه الآخر العملتين صورة كسرى فارس، وقيصر بينزنطة. انظر: جواد علي: المرجع السابق، (ص٤٨٧ – ٤٩٥)؛ الشريف، المرجع السابق، ص٢١٥.

(١١٠) الطبري: المصدر السابق، (٢/ ٤٦٥).

(١١١) الغاشية: ١٢ – ١٦. وقال ابن منظور في المصدر السابق (١/ ٣٦١، ٤٤٧): إنها البسط والوسائد.

(١١٢) الكهف: ٣١؛ الصافات: ٤٤؛ الطور: ٢٠؛ الواقعة: ١٥؛ الغاشية: ١٣؛ الزخرف: ٣٤. وقال ابن منظور في المصدر السابق (١٠/ ٥): إنه الرقيق من الحرير والخشن منه.

(١١٣) التوبة: ٢٤، ٧٢؛ سبأ: ١٥، ٣٧؛ إبراهيم: ٤٥؛ الصف: ١٢؛ الفرقان: ١٠، ٧٥؛ الزمر: ٢٠؛ العنكبوت: ٥٨؛ الأعراف: ٧٤.

(١١٤) الحج: ٤٥؛ الأعراف: ٧٤؛ الفرقان: ١٠.

(١١٥) الزخرف: ٣٥.

(١١٦) ابن عثيمين، محمد بن صالح: تسهيل الفرائض، مكتبة الوادي، جدة، (ص٣).

(١١٧) جواد علي: المرجع السابق، (٢/ ٣١٩، ٤٥٤).

(١١٨) المرجع نفسه.

(١١٩) انظر قصة عداس وصهيب الرومي. ابن هشام: المصدر السابق، (٢/ ٢٦١، ٤٢١)؛ جواد علي: المرجع السابق، (٢/ ٤٦١) وما بعدها؛ الشريف، المرجع السابق، ص٢٢٨.

(١٢٠) ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ١٢٥).

(١٢١) عبس: ٦؛ وانظر ما ذكره الشوكاني في فتح القدير، (٢/ ٢٦) في تفسيره لقول الله تعالى في سورة الأنعام: ٥٣: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ وقوله تعالى في سورة هود: ٢٧، ٢٨: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ...﴾.

(١٢٢) هيكل: المرجع السابق، (ص١٠٤)؛ وانظر: الشريف، المرجع السابق، ص٢٢٦.

(١٢٣) ذكر فؤاد علي رضا في كتابه أم القرى، مؤسسة المعارف، بيروت، (ص١٤٦)، بيوت الشرف العشرة في قريش وهم: بنو هاشم، بنو أمية، بنو نوفل، بنو عبد الدار، بنو أسد، بنو تيم، بنو مخزوم، بنو عدي، بنو جمح، بنو سهم.

(١٢٤) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٠، ١٦١)؛ ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ١٩٣) وما بعدها؛ الطبري: المصدر السابق، (٢/ ٢٨٧) وما بعدها.

(١٢٥) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ٨٦ – ١٠٢).

(١٢٦) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٥٨)؛ هيكل: المرجع السابق، (ص١٢٥)؛ العقاد: المصدر السابق (مطلع النور)، (ص٤٦).

(١٢٧) هيكل: المرجع السابق، (ص٥٢).

(١٢٨) أورد العسقلاني في الإصابة، (٧/ ٦١)، ترجمة أبو الجهم بن حذيفة الذي أدرك بناء الكعبة في العهدين، وذكر انه من رواة الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١٢٩) المصدر السابق، (١/ ١٧٢، ١٧٣).

(١٣٠) انظر مثلاً: ما قيل عن وجود حية تلازم حراسة الكعبة، واختطاف طائر عملاق لها، وكذلك تزعزع بعض جبال مكة، عندما حاولوا تحريك بعض قواعد إبراهيم. الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦١ – ١٦٢)؛ ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ١٩٣) وما بعدها؛ وانظر ما ذكره الطبري في مقدمة تاريخه، (١/ ٨) عن سبب تدوينه لمثل هذه الأخبار.

(١٣١) عمارة عبدالله بن الزبير سنة ٦٤هـ، عمارة عبدالملك بن مروان سنة ٧٤هـ، عمارة السلطان مراد العثماني سنة ١٠٤٠هـ.

(١٣٢) ابن كثير: البداية والنهاية، (٤/ ٣١٥، ٥/ ٣٠)؛ هيكل: المرجع السابق، (ص٤٢٦، ٤٦٨).

(١٣٣) ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ١٩٤)؛ ابن كثير: البداية، (٢/ ٢٧٩).

(١٣٤) انظر: ص٢٠، ٢١.

(١٣٥) انظر: ص١.

(١٣٦) ذكروا بابها وصحتها بابيها الموضعان من عهد إبراهيم.

(١٣٧) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٥٩).

(١٣٨) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٢).

(١٣٩) البخاري: المصدر السابق، كتاب الحج، باب فضل مكة، الحديث رقم (١٥٨٤).

(١٤٠) عن العشائر القرشية، أنظر: الأزرقي: ا لمصدر السابق، (١/ ١٦١)؛ رضا: المرجع السابق، (ص١٤٦).

(١٤١) البخاري: المصدر السابق، كتاب الحج، باب فضل مكة، الحديث رقم (١٥٨٢).

(١٤٢) وفي ذلك يقول شاعرهم:

تشـــاجرت الأحيـــاء في فصـــل خطـــة جـرت بيـنهم بـالنجس مـن بعـد سـعد
تلاقـــوا بهـــا بـــالبغض بعـــد مـــودة وأوقـــد نـــاراً بيـــنهم شـــر موقـــد
فلمـــا رأينـــا الأمـــر قـــد جـــد جـــده ولم يبـــق شـــيء غـــير ســـل المهنـــد
رضـــينا وقلنـــا العـــدل أول طـــالع يجـيء مـن البطحـاء مـن غـير موعـد
ففاجأنـــا هـــذا الأمـــين محمـــد فقلنـــا رضـــينا بـــالأمين محمـــد

ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ١٩٧) الحاشية رقم٣.

(١٤٣) بلغ عدد المقاتلين من قريش في معركة بدر، بعد رجوع الأخنس بن شريف حليف بني زهرة، ألف مقاتل، وكان عددهم في أحد مع عبيدهم وحلفائهم، ومـن أعـانهم مـن أهـل تهامـة ثلاثة آلاف مقاتل. انظر: ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ٦١٧، ٦١٩؛ ٢/ ٦٦).

(١٤٤) ذكر الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٦)، وجود قرني الكبش الذي ضحى به إبراهيم عليه السلام ضمن هذه المقتنيات فهل يمكن أن يسلم هذا الجزء العضوي في جو مكة الحار مـن التلف بعد آلاف السنين.

(١٤٥) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٦).

(١٤٦) الأزرقي: المصدر نفسه، (١/ ١٧٣).

(١٤٧) انظر ما فعله ابن الزبير سنة ٦٤-٦٥هـ. فقد قدر ما يلزمه من الأحجار الجديـدة الـتي يبنـى بها الجزء المضاف للكعبـة ممـا يلـي الحجـر بالإضـافة إلى مـا زاده في ارتفاعهـا. الأزرقـي: المصدر السابق (١/ ٢٠٥).

(١٤٨) ذلك لأن ارتفاع الكعبة زاد إلى الضعف، هـذا فضـلاً عـن بنـاء جـدار داخـل الكعبـة بعـد رجوعهم بجدارها الشمالي عن قواعد إبراهيم.

(١٤٩) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ٢٢٢)؛ باسلامة: المرجع السابق، ص١١٧.

(١٥٠) انظر ص٢٢.

(١٥١) العقاد: المرجع السابق، (ص١٢٧)؛ مؤنس: المرجع السابق، (ص١٩١) وما بعدها؛ جواد علي: المرجع السابق، (٧/ ٣١٩) وما بعدها؛ الشريف: المرجع السابق، ص٢١٢.

(١٥٢) انظر ص٢١.

(١٥٣) انظر دور عقلاءهم في إنشاء الأحلاف التي كان أشهرها وأنفعها حلف الفضول، وكذلك دور عتبة بن ربيعة العيشمي الذي قال لقريش بعد أن سمع الحق من الرسول صلى الله عليه وسلم: دعوه وسائر العرب، فإن قتل فبيد غيركم، وإن انتصر فعزه عزكم، وكذلك موقفه في بدر قبل نشوب القتال، السيرة: المصدر السابق، (١/ ٢٩٤، ٦٢٣).

(١٥٤) جواد علي: المرجع السابق، (٧/ ٥٠٥ – ٥٢٣)؛ رضا: المرجع السابق، (ص١٥٨)، الشريف: المرجع السابق، ص٢٣٠.

(١٥٥) ميناء مكة قبل الإسلام، يقع اليوم على بعد ١٧٠كم من مكة. انظر: البلادي، عاتق بن غيث: معالم مكة التاريخية والأثرية، دار مكة، ص١٤٧.

(١٥٦) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٥٧).

(١٥٧) قال الشاعر يمتدح قصر النعمان بن المنذر:

شاده مرمراً وخَلَّلَه كِلساً فللطير في ذراه وكور

انظر: عدي بن زيد العبادي – وزارة الثقافة والإرشاد. دار الجمهورية للنشر، بغداد، ١٣٨٥هـ، ص٨٨.

(١٥٨) ذكر الأزرقي في المصدر السابق، (١/ ٢٢٢) أن عبدالله بن الزبير سأل رجال من قريش عن المحاجر التي أحضرت قريش منها أحجار الكعبة، فدلوه على عدة مقالع، في ثبير، ومن المطقع بين منى وعرفات، وجبل الخندمة، وجبل الكعبة، وجبل على طريق جدة، ومن مقلع بمزدلفة يقال له المفجر.

(١٥٩) باسلامة: المرجع السابق، (ص٩٩).

(١٦٠) البخاري: المصدر السابق، كتاب الحج، باب فضل مكة، الحديث رقم (١٥٨٢)؛ وقد نقل باسلامة في المرجع السابق، (ص٩٨) خبراً مفاده أن الرجال والنساء من قريش كانوا يعملون في جلب المواد اللازمة للبناء.

(١٦١) ابن جبير، محمد بن أحمد: رحلة ابن جبير سنة ٥٧٨ – ٥٨١هـ، ط٣، دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة ١٩٨٦م.

(١٦٢) البخاري: المصدر السابق، كتاب الحج، باب فضل مكة، الحديث رقم (١٥٨٦)؛ وانظر: الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ٦٠، ٦٤، ١٦٣، ٢١٦) حيث قال: لا يستطيع الثلاثون من الرجال تحريك الحجر الواحد، وانظر: ما أثبتته الدراسة الميدانية عند ترميم الكعبة سنة ١٤١٧هـ؛ الكردي: المرجع السابق، (ص١٥٢).

(١٦٣) البقرة: ١٢٧، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

(١٦٤) مسلم: المصدر السابق، كتاب الحج، باب نقض الكعبة، الحديث رقم (٤٠٢).

(١٦٥) المصدر نفسه، كتاب الحج، باب نقض الكعبة، الحديث رقم (٤٠٠)؛ والبخاري: المصدر السابق، كتاب الحج، باب فضل مكة، الحديث رقم (١٥٨٦).

(١٦٦) مسلم: المصدر السابق، كتاب الحج، باب نقض الكعبة، الحديث رقم (٤٠٣).

(١٦٧) انظر الرسم المعد من قبل مركز أبحاث الحج، جامعة أم القرى، (الشكل رقم١) فقد بلغ سمك الجدار الجديد ١,٠٥م.

(١٦٨) كوشك، يحيى: زمزم طعام طعم وشفاء سقم، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، (ص٦١)، وهو ما توافق مع ما ذكرته المصادر الموثوقة في تاريخ مكة؛ الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ٣١١)؛ الفاسي: المصدر السابق، (١/ ٣٩٩) وما بعدها.

(١٦٩) انظر (الشكل رقم ١) المنقول عن الكردي في كتابه الكعبة والحرمان الشريفان، (ص١٠٥).

(١٧٠) انظر ما ذكره الأزرقي في الحاشية رقم ١٠٧.

(١٧١) انظر ما قيل عن تجديد الكعبة في عهد عبدالله بن الزبير سنة ٦٤هـ، الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ٢٠٠) وما بعدها.

(١٧٢) باسلامة: المرجع السابق، (ص٩٩).

(١٧٣) انظر: الهامش ١٨٧ ص٣٠ وما بعدها.

(١٧٤) منها الأساس الشمالي الممتد من الشرق إلى الغرب والذي أبقت عليه قريش، وقد ظهر في عهد عبدالله بن الزبير مشابهاً لبقية القواعد، انظر: الأزرقي: (١/ ٢١٦).

(١٧٥) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ٣١٠)؛ الفاسي: المصدر السابق، (١/ ١٨٤)؛ البتنوني: الرحلة الحجازية، ط١، مطبعة الجمالية، مصر، ١٣٢٩هـ، (ص١٠٥)؛ الكردي: المرجع السابق، (ص١٥٥)؛ باسلامة: المرجع السابق، (ص١٧٩ – ١٨٤).

(١٧٦) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ٢٠٧، ٢/ ٣٤). هو بناء مائل يبنى بأسفل الجدران بحيث يرتكز في ميله إلى الجدار الذي نقص عرضه عن عرض ما تحته من البناء، فجاء على شكل ضلع المثلث المقابل للزاوية القائمة.

(١٧٧) الأزرقي: المصدر نفسه، (١/ ١٨٣).

(١٧٨) الجواليقي، موهوب بن أحمد ت٥٤٠هـ، المعرب من الكلام الأعجمي، تحقيق: ف عبدالرحيم، دار القلم، دمشق، (ص٤٥).

(١٧٩) البتنوني: محمد لبيب، المرجع السابق، (ص١٠٥).

(١٨٠) انظر: الفاسي: المصدر السابق، (١/ ١٨٣)؛ وقد ذكر البتنوني في المرجع السابق، (ص١٠٥) وجود مثل الرجوع بالجدران عن الأساس في العمائر المصرية القديمة وبعض الأسبلة المصرية.

(١٨١) كان ارتفاع الكعبة قبل قريش ٩ أذرع فزادتها ٩أذرع، ثم زادها ابن الزبير ٩أذرع أيضاً، الأزرقي: (١/ ٢٨٨).

(١٨٢) ثبت في دراسة ميدانية أجريت سنة ١٤١٧هـ على أساس الكعبة، صحة الرجوع بالبناء الحالي مما يلي الداخل كذلك. انظر: الكردي: المرجع السابق، (ص١٥٠).

(١٨٣) الفاسي: المصدر السابق، (١/ ١٨٣، ١٨٤).

(١٨٤) البخاري: المصدر السابق، كتاب الحج، باب فضل مكة، الحديث رقم (١٥٨٤، ١٥٨٥، ١٥٨٦)؛ مسلم: المصدر السابق، كتاب الحج، باب نقض الكعبة، الحديث رقم (٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣) كتاب أحاديث الأنبياء، الحديث رقم ٣٣٦٨.

(١٨٥) ابن حنبل: المصدر السابق، الحديث رقم (٢٤٨٠١، ٢٤٨٨٨، ٢٥١٢٣، ٢٥٢١٦، ٢٥٣٣٨، ٢٥٥٦٢، ٢٥٩٥٢، ٢٥٩٧٧، ٢٦٥٥٧، ٢٦٦٢٩، ٢٦٧٨٦)؛ وانظر: أبو نعيم في المستخرج ت ١٧٤/ ٢؛ النسائي: (٢/ ٣٤ – ٣٥)؛ الترمذي (١/ ١٦٦)؛ الدارمي (٢/ ٥٣ – ٥٤)؛ ابن ماجه (ص٢٩٥٥)؛ مالك (١/ ٣٦٣)؛ ابن راهويه (٢/ ٨٤).

(١٨٦) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٧٠، ١٧١، ٢٨٩)؛ الفاكهي: المصدر السابق، (٥/ ٢٢٨)؛ الفاسي: المصدر السابق، (١/ ١٥٤، ١٥٥).

(١٨٧) البخاري: المصدر السابق، كتاب الحج، باب فضل مكة، الحديث رقم (١٥٨٤)؛ مسلم: المصدر السابق، كتاب الحج، باب جدر الكعبة، الحديث رقم (٤٠٥).

(١٨٨) وهي جير محروق يكتسب بعد دقه وتحويله إلى مسحوق ناعم وخلطه بالماء، لزوجة تلتصق بالأحجار وقوالب الأجور، على غرار الأسمنت في الوقت الحاضر. انظر: غالب: المرجع السابق، (ص٣١٥).

(١٨٩) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ٢٠٥)؛ وانظر: المعرب، (ص٢٣٤).

(١٩٠) الكردي: محمد طاهر، التاريخ القويم، ط٣، مكتبة الأسدي، مكة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، (٣/ ١٠٩).

(١٩١) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ٣١٥).

(١٩٢) جاء في السيرة لابن هشام، (١/ ٢٨٩، ٢٩٥، ٣٩٠)، ما يؤكد اجتماع كبار قريش في الحجر بعد البعثة، وسخريتهم من النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، وإنكار الصديق عليهم بقوله في إحدى المواقف: أتقتلون رجلاً يقول ربي الله.

(١٩٣) جاء في كتاب الكردي: الكعبة والحرمان الشريفان، (ص١٠٥) أن بعد زمزم عن جدار الكعبة ٢١متراً، ولكون زمزم كانت في الطرف الشرقي من المطاف فإن البيوت المحيطة به كانت قريبة منها.

(١٩٤) البخاري: المصدر السابق، كتاب الحج، باب فضل مكة، الحديث رقم (١٢٦، ١٥٨٣، ١٥٨٤، ١٥٨٥، ١٥٨٦).

(١٩٥) مسلم: المصدر السابق، كتاب الحج، باب نقض الكعبة، الحديث رقم (٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦).

(١٩٦) نص البخاري:... عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الجدر، آمن البيت هو؟ قال: نعم، قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: ألم تري قومك قصرت بهم النفقة... الخ.

ونص مسلم... عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن الجدر، آمن البيت هو؟ قال: نعم، قلت: فلم لم يدخلوه في البيت؟ قال: إن قومك قصرت بهم النفقة... الخ.

(١٩٧) انظر الحديث رقم ١٥٨٥، ١٥٨٦.

(١٩٨) انظر الحاشية رقم ١٢٧.

(١٩٩) انظر: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، الحديث رقم ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٣.

(٢٠٠) أي الجدار الذي استحدثوه داخل قواعد إبراهيم مما يلي الشمال.

(٢٠١) انظر الحاشية رقم١٢٤.

(٢٠٢) انظر الحاشية رقم١٢٦.

(٢٠٣) قال إبراهيم رفعت: في مرآة الحرمين، (١/ ٢٦٦)، إن سعة فتحة الحجر الشرقية ٢,٣٠سم والغربية ٢,٢٣سم، وهو متوافق مع الأبعاد الظاهرة في الشكل رقم (١).

(٢٠٤) ذكر الأزرقي في المصدر السابق، (١/ ١٥٧، ١٦٠، ١٦٤)، أن بناءً رومياً كان في السفينة بنى لقريش الكعبة؛ وانظر ما أورد ابن كثير في البداية (٢/ ٢٧٩)؛ باسلامة: المرجع السابق،

(ص٩٨)؛ الكردي: التاريخ القويم، (٣/ ١٣٢)؛ وقيل أن نجاراً قبطي كان بمكة أعانهم على ذلك، باسلامة: المرجع السابق، (ص٩٢).

(٢٠٥) نقل الأزرقي في المصدر السابق، (١/ ١٧٦)، قول العرب عن أهل مكة بعد حادثة الفيل: أهل الله قاتل عنهم عدوهم.

(٢٠٦) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٣، ١٦٤)؛ وقال الكردي في كتابه الكعبة والحرمان الشريفان، (ص٦٩)، إن ارتفاع الباب اليوم ٣١٨سم، وعرضه ١٧١، وارتفاعه عن الشاذروان ٢٢٢سم.

(٢٠٧) المدماك صف من الحجارة المتساوية الأحجام أو اللبن أو الأجور أو القرميد، انظر: غالب: المرجع السابق، (ص٣٦١)؛ الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٤)؛ وقد ذكر باسلامة في المرجع السابق، (ص١٤٩ – ١٥٠) أن عدد المداميك في البناء الحالي (العثماني) ٢٥ مدماكاً، تقل مساكة في كل مدماك عن الذي تحته.

(٢٠٨) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٤).

(٢٠٩) ذكر الأزرقي في المصدر نفسه، (١/ ٢٥٢) أن الكعبة كانت تكسى في الجاهلية يوم عاشوراء، إذا ذهب آخر حاج حتى كانت بنو هاشم، فكانوا يعلقون عليها القمص يوم التروية من الديباج، لكي يرى الناس بهاءها، فإذا كان يوم عاشوراء علقوا عليها الأزر؛ انظر باسلامة: المرجع السابق، (ص٢٩٧).

(٢١٠) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ٣٠٥).

(٢١١) الكردي: الكعبة والحرمان الشريفان، (ص١٤٥).

(٢١٢) انظر الشكل رقم١.

(٢١٣) الأزرقي (١/ ١٦٤).

(٢١٤) الكردي: الكعبة والحرمان الشريفان، (ص١١٠).

(٢١٥) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٧١).

(٢١٦) الأزرقي: المصدر نفسه، (١/ ٢٠٩)؛ والفاسي: المصدر السابق (١/ ٢٠٩).

(٢١٧) الأزرقي: المصدر نفسه، (١/ ١٧١).

(٢١٨) الأزرقي: المصدر نفسه، (١/ ١٦٣).

(٢١٩) الأزرقي: المصدر نفسه، (١/ ١٣٨).

(٢٢٠) أنكر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث على قريش الرجوع بالجدار الشمالي، ورفع الباب الشرقي، وسد الباب الغربي، انظر البخاري: المصدر السابق، كتاب الحج، باب فضل مكة، الحديث رقم (١٥٨٤)؛ ومسلم: المصدر السابق، كتاب الحج، باب جدر الكعبة، الحديث رقم (٤٠٥).

(٢٢١) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٤).

(٢٢٢) المصدر نفسه، (١/ ١٦٤، ٢٠٩).

خلصت الروايات إلى أن ارتفاع الكعبة قبل عمارة قريش كان: «رضماً تقفزه العناق» والواقع أن ذلك كان حال الحجر كما صرح به الأزرقي في المصدر السابق، (١/ ٦٥)؛ وانظر: الكردي: التاريخ القويم، (٣/ ١٠٧) وما بعدها.

(٢٢٣) شافعي: فريد، العمارة العربية في مصر في عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (ص٤٠، ٥٠، ٥١).

(٢٢٤) الكردي: التاريخ القويم، (٣/ ١٣١)؛ انظر: هيكل: المرجع السابق، (ص٦٩).

(٢٢٥) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٧١).

(٢٢٦) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٧).

(٢٢٧) غالب: المرجع السابق، (ص٣١٠، ٣١٣)؛ شافعي: المرجع السابق، (ص١١٧). وهي سطوح تبنى بالعقود المتجاورة فتكون نصف اسطوانية من الداخل ومسطحة من الخارج بعد ملئها بالأجور والجص.

(٢٢٨) شافعي: المرجع السابق، (ص١١٥)؛ والقبة بناء دائري المسقط مقعر من الداخل، مقبب من الخارج، وتتألف القبةمن دوران قوس على محور عمودي، لتصبح نصف كروية؛ انظر:

غالب: المرجع السابق، (ص٣٠٩)؛ ومرد تخليهم عن القبة، علمهم أنها لا تصلح إلا لتغطية مساحة مربعة الشكل.

(٢٢٩) انظر الشكل رقم١.

(٢٣٠) إذا أنقصنا الجزء المدفون من ارتفاع الكعبة الذي يبلغ ١٨ ذراعاً (٩ أمتار تقريباً)، فإن الباقي ٧ أمتار.

(٢٣١) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ٢٠٩، ٢٩٠)؛ الفاسي: المصدر السابق، (١/ ١٥٧، ١٥٨).

(٢٣٢) الكردي: الكعبة والحرمان الشريفان، (ص١٢٨).

(٢٣٣) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٠).

(٢٣٤) باسلامة: المرجع السابق، (ص٩٨)؛ وقد عبر الأزرقي عن هذا الطرح من باقوم "بالمكبس أو المسطح"، انظر المصدر السابق، (١/ ١٦٤).

(٢٣٥) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٤).

(٢٣٦) شافعي: المرجع السابق، (ص٥٥).

(٢٣٧) شجر جبلي تسميه الفرس السرو، ابن منظور: المصدر السابق، (٤/ ٥٦٠).

(٢٣٨) الدوم شجر يشبه النخل، له ليف وخوص مثل ليف النخل، ابن منظور: المصدر السابق، (٢/ ٢١٨).

(٢٣٩) الأزرقي: المصدرالسابق، (١/ ٢٠٥).

(٢٤٠) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٥٨، ١٦١).

(٢٤١) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٧، ٢٠٩). والدعامة في العمارة عمود من الخشب أو من الحجر أو من مواد بنائية مختلفة، تدعم حائطاً أو تحمل سقفاً. انظر: غالب: المرجع السابق، ص١٨٩.

(٢٤٢) استخدمت فيما بعد لنحت صور وتماثيل سنذكرها فيما بعد.

(٢٤٣) الجواليقي: المصدر السابق، (ص٥٩٨)، وقال فارسي معرب.

(٢٤٤) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٤).

(٢٤٥) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٥).

(٢٤٦) وله غطاء بأعلى السطح يفتح عند الحاجة، وقد أعاده ابن الزبير على حاله في سنة ٦٤هـ، انظر الأزرقي، (١/ ٢٠٩)؛ وانظر موقعه في الشكل رقم١؛ وقد ذكره الكردي في كتاب الكعبة والحرمان الشريفان، (ص١٢٨) بعد ترميم الكعبة المعظمة سنة ١٤١٧هـ.

(٢٤٧) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٥).

(٢٤٨) الأزرقي: المصدر نفسه، (١/ ٢٤٩).

(٢٤٩) هي مساحة جدران الكعبة الأربعة.

(٢٥٠) الأزرقي (١/ ٢٥١)؛ الفاسي: المصدر السابق، (١/ ١٩٥)؛ باسلامة: المرجع السابق، (ص٢٩٤).

(٢٥١) ابن منظور: المصدر السابق، (٤/ ١٥٩). والحبرات: نسيج يمني منمر يصنع من الكتاب أو القطن ويكون بخطوط طولية منها الأسود والأبيض أو الأبيض والأحمر.

(٢٥٢) ذكر ابن منظور في لسان العرب، (٤/ ١٥٩) أن الحبرات ضروب من البرود اليمانية منمرة، وذكر في (١١/ ٧٢٩) أن الوصايل هي برود اليمن مخططة باللون الأحمر.

(٢٥٣) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ٢٥١)؛ باسلامة: المصدر السابق، ص٢٩٤.

(٢٥٤) العقاد: المرجع السابق، (ص٥٢)؛ جواد علي: المرجع السابق، (٦/ ٥٨٨، ٥٨٩، ٦٠٣، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧).

(٢٥٥) انظر: سيرة ابن هشام، (١/ ٢٢٣)؛ وتنصر عبدالله بن جحش، وكان زوجاً لرملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها.

(٢٥٦) قال لويس معلوف في المنجد، (ص٢١) أنها التماثيل والصور ويقابلها في العربية النصمة، وفي لسان العرب، (١٢/ ٥٧٨) أن الصنمة أو النصمة صورة تعبد.

(٢٥٧) جواد علي: المرجع السابق، (٦/ ٦٥٠).

(٢٥٨) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٣٨) وما بعدها؛ ابن هشام: المصدر السابق، (١/ ٤٣).

(٢٥٩) قال الأزرقي في المصدر السابق، (١/ ١١٧، ١١٨، ٣٧٩): أن الأزلام كانت أقداح في الكعبة بجوار الصنم هبل مكتوب عليها افعل، لا تفعل، أو نعم، لا؛ وانظر: ابن منظور: المصدر السابق، (١٢/ ٢٧٠).

(٢٦٠) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، الحديث رقم (٣٣٥١، ٣٣٥٢).

(٢٦١) ذكر الأزرقي في المصدر السابق، (١/ ١٦٥ – ١٦٩)، صور لبعض الملائكة والأنبياء، وتماثيل على الجدران وأخرى منقورة في الدعائم الخشبية، وقد علق محقق كتاب الفاسي – رشدي ملحس – على هذه الأخبار، وضعف معظمها، إلا ما ورد في صحيح البخاري.

(٢٦٢) الأزرقي: المصدر السابق، (١/ ١٦٥).

(٢٦٣) ابن كثير: البداية (٢/ ٢٠٤).

(٢٦٤) نفسه.

(٢٦٥) ابن هشام: المصدر السابق، القسم الأول/ ٣٥٠ وما بعدها. والصحيفة وثيقة قاطعت بها قريش عشيرتي النبي صلى الله عليه وسلم في البيع والمصاهرة، لمنعهم الاعتداء على النبي صلى الله عليه وسلم وعدم إجباره على ترك دعوته، فانضموا مع عمه أبي طالب في شعبه لمدة ثلاث سنوات ما عدا الأشهر الحرم.

(٢٦٦) انظر: ص١٥.

(٢٦٧) المصدر السابق، (٥/ ١٩٤).

(٢٦٨) الأنفال، آية ٨.

قائمة المصادر المراجع

١- باسلامة، حسين عبدالله. تاريخ الكعبة المعظمة (عمارتها وكسوتها وسدانتها). دار الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤١٩هـ.

٢- البتنوني، محمد لبيب. الرحلة الحجازية، ط٢، مطبعة الجمالية، القاهرة، ١٣٢٩هـ.

٣- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٠هـ). صحيح البخاري. دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض.

٤- البكري، عبدالله بن عبدالعزيز (ت٤٨٧هـ). معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع. جزءان، تحقيق: مصطفى السقا. عالم الكتب، بيروت.

٥- البلادي، عاتق بن غيث. معالم مكة التاريخية والأثرية. ط٢، دار مكة للطباعة والنشر، مكة المكرمة، ١٤٠٣هـ.

٦- الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله (ت٢٢٣هـ). أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. جزءان. تحقيق: رشدي ملحس. ط٢، دار الثقافة، مكة المكرمة، ١٣٩٨هـ.

٧- رضا، فؤاد علي. أم القرى. مؤسسة المعارف، بيروت.

٨- رفعت، ابراهيم. مرآة الحرمين. جزءان. دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٤هـ.

٩- الزبيدي، مرتضى. تاج العروس. تحقيق: مصطفى حجازي، دار الهداية، بيروت ١٣٩٧هـ.

١٠- ابن جبير، محمد بن أحمد. رحلة ابن جبير ٥٧٨-٥٨١هـ. ط٣، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦م.

١١- ابن حنبل، أبو عبدالله احمد (ت٢٤١هـ). المسند، بيت الأفكار الدولية، الرياض ١٤١٩هـ.

١٢- شافعي، فريد. العمارة العربية في مصر في عصر الولاة. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة.

١٣- سالم، عبدالعزيز. دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام. مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

١٤- الشريف، أحمد إبراهيم. مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم. دار الفكر العربي.

١٥- الشوكاني، محمد بن علي (ت١٢٥٠هـ). فتح القدير. ٤ أجزاء، تحقيق: فريال علوان. مكتبة الرشد، الرياض.

١٦- الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ). تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، ٨ أجزاء، تحقيق: محمد أبو الفضل، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

١٧- العقاد، عباس. العبقريات الإسلامية. ٧ أجزاء، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٦م.

١٨- العسكري، أبو هلال. جمهرة الأمثال. تحقيق: عبدالمجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة ١٣٨٤هـ.

١٩- علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨ أجزاء، ط٢، دار العلم، بيروت، ١٩٧١م.

٢٠- غالب، عبدالرحيم. موسوعة العمارة الإسلامية. جروس بروس، بيروت.

٢١- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد (ت٨٣٢هـ). شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. جزءان. تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري. دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٢- الفاكهي، أبو عبدالله محمد بن إسحاق (آخر القرن الثالث الهجري). أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ٦ أجزاء، ط٣، تحقيق: عبدالملك بن دهيش. دار خضر للنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٤هـ.

٢٣- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت٦٧١هـ). الجامع لأحكام القرآن، ٢٠ جزء، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٤- القشيري، مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ). صحيح مسلم. مكتبة الرشد، الرياض.

٢٥- ابن كثير، عماد الدين (ت٧٧٤هـ). البداية والنهاية. ١٤ جزء، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ.

٢٦- الكردي، عبيدالله محمد أمين. الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان. مجموعة بن لادن السعودية.

٢٧- الكردي، محمد طاهر. التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ط٣، ٦ أجزاء، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ١٤٢٥هـ.

٢٨- كوشك، يحيى حمزة. زمزم طعام طعم وشفاء سقم. دار العلم للطباعة والنشر، جدة.

٢٩- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمد (ت٧١١هـ). لسان العرب. ١٤ جزء، دار بيروت للطباعة والنشر.

٣٠- ابن هشام، أبو محمد عبدالملك (ت٢١٨هـ). السيرة النبوية. جزءان، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين.

٣١- مؤنس، حسين. تاريخ قريش. الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة.

٣٢- هنتس، فالتر. المكاييل والأوزان الإسلامية. ترجمة: كامل العسلي، الجامعة الأردنية، عمان ١٩٧٠م.